رسول الله

المِنح الإلهيَّة
في إقامة الحُجة على البشرية

د. عبد الله بن عبد العزيز المصلح

الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

www.rasoulallah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس | index

مقدمة ---------- 04

القسم الأول

نعم الله ومواهبه وفضله على خلقه ------- 05

نعمة الخلق السوي ---------- 06

نعمة الرزق ---------- 07

نعمة الهداية ---------- 10

القسم الثاني

براهين الإيمان وإقامة الحجة على البشرية---- 16

البرهان الأول: إحساس الفطرة ----- 17

البرهان الثاني: العقل المتدبر في
ملكوت الله ---------- 20

البرهان الثالث: برهان العناية ------- 30

الفيزياء الذرية الحديثة تبطل النظرية المادية
الطبيعية وتثبت وجود الله الرقيب على
استمرار عمل ذرات الكون ---------- 35

البرهان الرابع: إرسال الرسل عليهم
السلام فلا بد من وجود الله المرسل -- 43

أنواع الإعجاز التي أعطيت للنبي
صلى الله عليه وسلم ---------- 52

البرهان الخامس: برهان إنزال الكتب --- 75
البرهان السادس: الإعجاز العلمي
في القرآن والسنة ----- 80

مشاهد من الإعجاز العلمي
في القرآن والسنة ---------- 81
الثقوب السوداء ---------- 82
سراجاً وقمراً منيراً ---------- 85
الضغط الجوي ---------- 89
والسماء ذات الرجع ---------- 92
النهايات العصبية في الجلد ---------- 96
الحبة السوداء ---------- 100
المفاصل في جسم الإنسان ---------- 103
الأمراض الجنسية ---------- 108
الناصية ---------- 112
نشأة الذرة ---------- 116
تداعي الجسد ---------- 120
خلق الجنين في أطوار ---------- 124
الحجر الصحي ---------- 128
عُجب الذنب ---------- 132
لحم الخنزير ---------- 135
أدنى الأرض ---------- 139
والأرض ذات الصدع ---------- 143
الجبال أوتاد ---------- 147
تداخل وتمايز الكتل البحرية ---------- 151
ظلمات البحر العميق ---------- 155

الخاتمة ---------- 159

مقدمة:

اللهم لك الحمد،، كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. أنت الخالق فلا خالق سواك، وأنت الرازق فلا رازق سواك، وأنت المتصرف في ملكوت السموات والأرض وحدك لا شريك لك، أرسلت إلينا أفضل رسلك، وأنزلت علينا أكمل كتبك، ورضيت لنا الإسلام ديناً، وما منا من أحد إلا هو يعيش تحت ظلال نعمك وآلائك، ووهبتنا عقولاً نسرحها في مخلوقاتك حتى يتبين لنا أن كل شيء في الكون هادف.

﴿أَلَم نَجعَلِ ٱلأَرضَ مِهَٰدٗا ** وَٱلجِبَالَ أَوتَادٗا ** وَخَلَقنَٰكُم أَزوَٰجٗا ** وَجَعَلنَا نَومَكُم سُبَاتٗا﴾ [النبأ].

ما كان ذلك ليكون اتفاقاً، فلا بد من خالق قاصد حكيم، وما كان - برحمته - ليذر الخلق فيما هم عليه من تفاوت عقولهم في معرفة غاية وجودهم ﴿أَفَحَسِبتُم أَنَّمَا خَلَقنَٰكُم عَبَثٗا وَأَنَّكُم إِلَينَا لَا تُرجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وتفرقهم في إدراك مصالحهم في معاشهم ومعادهم، فأرسل إليهم صفوة من خلقه يهدونهم سواء السبيل، وأيدهم بالأدلة القطعية اليقينية الدالة على صدقهم، وكان خاتمهم محمد بن عبد الله - صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه - النبي الأمي الذي عدّ له الإمام النووي دلائل تزيد على ألف ومائتي برهان ودليل على أنه رسول رب العالمين[1]،،، وبعد:

أخي الحبيب.. أختي الكريمة.. هذه الرسالة التي عنوانها (المنح الإلهية في إقامة الحجة على البشرية)، أرجو الله السميع العليم أن ينفعك به، ويقوي إيمانك ويجعلك على بصيرة وهدى، ويرزقك طمأنينة الحق، وسعادة الفوز فيه ﴿أَلَا بِذِكرِ ٱللَّهِ تَطمَئِنُّ ٱلقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووي - المقدمة ٢/١، مط المصرية.

القسم الأول

نعم الله ومواهبه وفضله على خلقه

يعيش الإنسان تحت ظلال آلاء الله الوافرة، ونعمه السابغة، ويتقلب في رحاب فضله عز وجل.

وهذه النعم من الكثرة بحيث لا تُعد ولا تُحصى، وللتدليل على كثرة نعمه أنزل سورة النحل التي تسمى سورة النعم، وقال فيها:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]،

وقال أيضاً: ﴿يَعرِفُونَ نِعمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكثَرُهُمُ ٱلكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣] .

فما هي أبرز هذه المواهب والمنح الربانية التي أغدقها الله على عباده، وتفضل بها عليهم، والتي لا قدرة لأحد على فعلها أو إعطائها إلا الله عز وجل؟.

نعمة الخلق السوي

لقد خلق الله سبحانه وتعالى أبا البشرية آدم عليه السلام بيديه تقديراً لشأنه، وخلَقَه في أحسن تقويم.

قال تعالى: ﴿لَقَد خَلَقنَا ٱلإِنسَٰنَ فِيٓ أَحسَنِ تَقوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له إكراماً له، وتقديراً لذريته من بعده قال تعالى: ﴿إِذ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ** فَإِذَا سَوَّيتُهُ وَنَفَختُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ** فَسَجَدَ ٱلمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُم أَجمَعُونَ ** إِلَّآ إِبلِيسَ ٱستَكبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلكَٰفِرِينَ ** قَالَ يَٰٓإِبلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسجُدَ لِمَا خَلَقتُ بِيَدَيَّ أَستَكبَرتَ أَم كُنتَ مِنَ ٱلعَالِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٥].

وكان من تمام النعمة على الإنسان أن خلق له زوجه ليأنس بها في وحدته، ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنهَا زَوجَهَا لِيَسكُنَ إِلَيهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، قال المفسر القرطبي: «ومعنى صالحاً: يريد ولداً سوياً أي غير مشوه الخلقة»[1]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧﴾ [الانفطار]، «أي جعلك معتدلاً سوي الخلق».

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٨٨/٧، ٢٤٦/١٩، دار إحياء التراث العربي ببيروت ١٤٠٥ - ١٩٨٥.

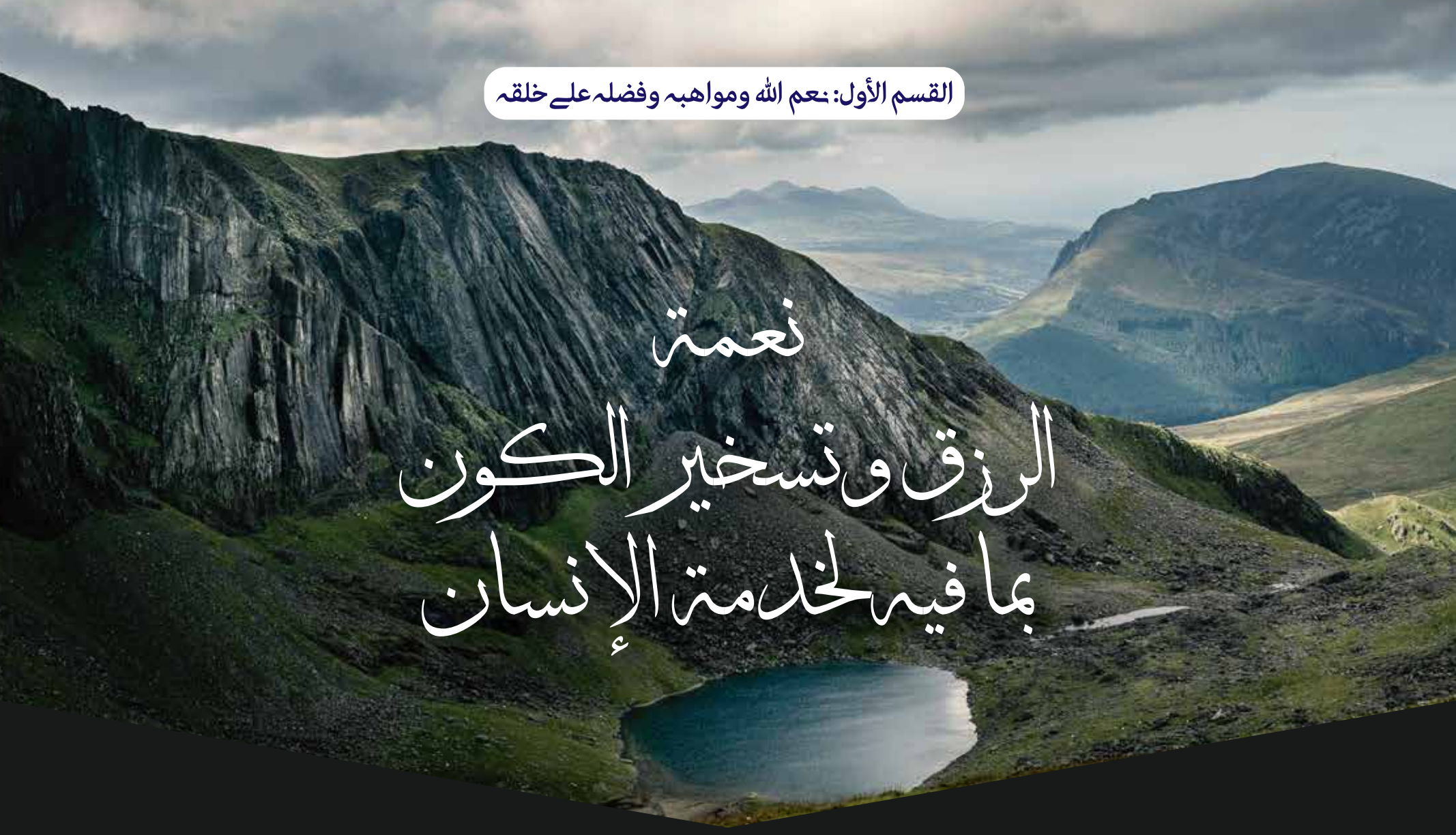

نعمة
الرزق وتسخير الكون بما فيه لخدمة الإنسان

جعل الله عز وجل الإنسان في هذا الكون في مركز السيادة، وأجرى الكون بما فيه يسعى حثيثاً لنفعه، ولصلاحه واستمرار عيشه.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلأَرضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]

بل أكد أيضاً أن ما في الكون كله يعمل لخدمته، قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلأَرضِ جَمِيعًا مِّنهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية]، **وقال تعالى:** ﴿أَلَم تَرَواْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلأَرضِ وَأَسبَغَ عَلَيكُم نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

ثم فصّل جل شأنه بعض هذه النعم فقال تعالى: ﴿وَٱلأَنعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنهَا تَأكُلُونَ ٥ وَلَكُم فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسرَحُونَ ٦ وَتَحمِلُ أَثقَالَكُم إِلَىٰ بَلَدٖ لَّم تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُم لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلخَيلَ وَٱلبِغَالَ وَٱلحَمِيرَ لِتَركَبُوهَا وَزِينَةٗ وَيَخلُقُ مَا لَا تَعلَمُونَ٨﴾ [النحل].

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنهُ شَرَابٞ وَمِنهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرعَ وَٱلزَّيتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلأَعنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَومٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمسَ وَٱلقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَومٖ يَعقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُم فِي ٱلأَرضِ مُختَلِفًا أَلوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَومٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلبَحرَ لِتَأكُلُواْ مِنهُ لَحمٗا طَرِيّٗا وَتَستَخرِجُواْ مِنهُ حِليَةٗ تَلبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلفُلكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضلِهِۦ وَلَعَلَّكُم تَشكُرُونَ ١٤﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزقٗا لَّكُم وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلفُلكَ لِتَجرِيَ فِي ٱلبَحرِ بِأَمرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلأَنهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمسَ وَٱلقَمَرَ دَآئِبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحصُوهَآ إِنَّ ٱلإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم].

فانظر أخي الكريم إلى هذه النعم المسطورة في هذه المقاطع من كتاب الله، وكيف صدرت النعم في المقطع الأول بنعمة خلق الكون بما فيه من أجل الإنسان، لتدرك مدى عناية الخالق سبحانه وتعالى بالناس، ثم فصلت الهدف من خلق الحيوان، وأنه خُلق لأجل نفع الإنسان: لأكله ولباسه وتدفئته، ولركوبه وحمل أثقاله، والتمتع بجمال منظره. ثم تحدثت عن الهدف من إنزال المطر لشرب الناس، وإنبات الشجر الذي ترعاه الحيوانات، وتخرج معه شتى أنواع الثمار، وكل ذلك من أجل الإنسان، ثم قررت الغاية منم خلق البحار والأنهار، وأن السفن تجري فيها لحمل نعم الله من البضائع والأرزاق للإنسان، كما أن فيها الأسماك ذات اللحوم الطرية، واللآليء للزينة، ثم انتهت بالحديث عن عظيم كرم الله على الإنسان وأنه يعطيه كل ما سأله.

قال المفسر القاسمي: «وآتاكم من كل ما سألتموه»: أي ما تحتاجون إليه مما تصلح أحوالكم ومعايشكم به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال»[1].

(١) محاسن التأويل.

نعمة
الهداية بغرس أوليات ومسلمات العلم اليقينية (الضرورية) في العقل

منذ أن وجد الإنسان ومازال يتساءل: من أين أتى؟ وإلى أين المنتهى؟

تعددت إجابات المذاهب والفلسفات، وكانوا كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزبِۭ بِمَا لَدَيهِم فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٢]، واحتار العقل؛ من الذي لديه العلم اليقيني البديهي الضروري الذي لا يستطيع الإنسان الإنفكاك عنه؟، فإن الحق واحد لا يتعدد قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلحَقُّ فَمَاذَا بَعدَ ٱلحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصرَفُونَ ٣٢﴾ [يونس].

ومبدأ عدم التناقض (النفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد في آن واحد) هو إحدى هذه البديهيات الفطرية الضرورية التي غرسها الله عز وجل في العقل البشري لتهديه إلى الحقيقة.

وقد أجمعت الأمم قديماً وحديثاً أن بداية حدوث الإنسان كانت من الله الصانع الحي القائم على تدبير الكون والإنسان والحياة، إلا شرذمة ادَّعت أن الطبيعة هي التي أحدثت الإنسان مصادفة، وأول تناقضهم أن الطبيعة هي على وزن «فعيلة» بمعنى «مفعولة» مثل ذبيحة وطريدة، أي هي مطبوعة، ومعلوم أن طبيعة من غير طابعٍ لها محال، فقد دل لفظ الطبيعة على الخالق الباري سبحانه وتعالى[1]

(١) أنظر: مفتاح دار السعادة لأبن القيم ٢٩٩/١، الطبعة الأولى - دار الحديث، القاهرة ١٤١٤/١٩٩٤.

ومن ثم فإن قولهم: إن الطبيعة هي «فاعل» خالق لا دليل عليه، يقول الله تعالى في الرد على بعض عرب الجاهلية الذين ذهبوا لهذا القول: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنيَا نَمُوتُ وَنَحيَا وَمَا يُهلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِن عِلمٍ إِن هُم إِلَّا يَظُنُّونَ٢٤﴾ [الجاثية]، أي أن قولهم هذا مجرد وهم لا دليل عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِن عِلمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغنِي مِنَ ٱلحَقِّ شَيـًٔا ٢٨﴾ [النجم]، ذلك أن أصول العقائد لا تبنى إلا على اليقين كما بين العلماء، لا على مجرد الاحتمال والوهم.

كما أن الإنسان أرقى من الطبيعة، وأكثر حرية منها، فهاهو يغزو الفضاء، ويغوص في أعماق البحار، والطبيعة مسخرة مقيدة مأسورة في قوانينها، ورحم الله شاعر الإسلام في القرن الماضي محمد إقبال عندما قال مخاطباً زعيم الإلحاد في عصره «كارل ماركس».

ويقول الله تعالى مشيراً إلى هذه الحقيقة: ﴿وَلَقَد كَرَّمنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلنَٰهُم فِي ٱلبَرِّ وَٱلبَحرِ وَرَزَقنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلنَٰهُم عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّن خَلَقنَا تَفضِيلًا٧٠﴾ [الإسراء]، ثم إن الطبيعة صماء بلهاء لا يعنيها هداية الإنسان إلى الحقيقة لا من قريب أو بعيد، فالقول إنها خلقت الحياة، هو بمنزلة تجويز أن يصير المداد إذا سكب على الأرض - بمرور الزمن - مصحفاً معرَباً لا غلط فيه ولا لحن: بطبع المداد من غير كاتب عالم[1].

(١) أنظر: مفتاح دار السعادة لأبن القيم ٢٩٩/١، الطبعة الأولى - دار الحديث، القاهرة ١٤١٤/١٩٩٤.

يقول أحد أشهر علماء المسلمين وهو شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولا يجوز أن يكون المقتضى لتغير الإنسان وتشكيله طبيعةً غير عالمة ولا مختارة لأن الإنسان أبلغ في الترتيب والحكمة من بناء دار وصناعة تاج)[1]؛ ويقول أيضاً: (وقد علم عند عوام الناس أن انتقال النطفة إلى أن تصير إنساناً أو بهيمة أعظم في الأعجوبة من تحول الفضة خاتماً، والخشبة سريراً، والغزل ثوباً منسوجاً)[2]، وقد فطن لهذا شاعر عاقل فقال:

أيجوز عقلاً أن عقلاً ناطقاً
قد أبدعته طبيعة بلهاءُ

ونحن نرى روعة الهندسة في الزهرة، وجمال الصنعة في عين الإنسان، وحسن التنسيق في ترتيب الأسنان، ودقة النظام في تكوين عروق الدم والأعصاب، وانتهاءً بفائق التصميم لخلية الإنسان، إلى آخر ما نرى في عالم تشريح الإنسان.

يقول العلامة ابن الوزير: "فلو جاز أن يكون مثل هذا بغير صانع لجاز لنا دُوراً معمورة أو مصاحف مكتوبة أو ثياباً محوكة، أو حليً مصوغة بغير بانٍ ولا كاتب ولا حائك ولا صائغ"[3].

وقد أشار القرآن الكريم إلى بطلان مذهب الطبائعيين هذه، قال تعالى:

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ٤﴾[الرعد].

(١) إيثار الحق على الخلق - لابن الوزير ٥١/١، ٤٨/١، ط٢ - دار الكتب العلمية ١٩٨٧.
(٢) درء تعارض النقل والعقل ١١٦/٤، ٩٤/٤.
(٣) درء تعارض النقل والعقل ١١٦/٤، ٩٤/٤.
(٤) إيثار الحق على الخلق - لابن الوزير ٥١/١، ٤٨/١.

يقول المفسر السمعاني: "وفي الآية رد على أصحاب الطبيعة، فإن الماء واحد، والتراب واحد والحرارة واحدة، والثمار مختلفة في اللون والطعم.. والطبيعة واحدة يستحيل أن توجب شيئين مختلفين"[١] إذ كما يقول القرطبي أشهر مفسري القرآن الكريم: " قوله: "يُسْقَى بماءٍ واحد) .. أدل دليل على بطلان القول بالطبع، إذ لو كان ذلك بالماء والتراب، والفاعل له الطبيعة: لما وقع الاختلاف"[٢] لأن هذا الاختلاف دليل يقيني على أن الصانع الخالق هو الذي يدير ويدبر هذه الأنواع التي اتحدت مادتها، وتنوعت في ثمار مختلفة متعددة لوناً وطعماً وذوقاً ونفعاً، إنها الحكمة الدالة على أن وراء ذلك: قاصد حكيم، عليم خبير، إنه الله الحي القيوم، وليست الطبيعة الجماد، ولهذا قال علماء النبات أن النباتات تتغذى بخاصية الأنابيب الشعرية، فيأخذ النبات ما يخصه من معادن التربة الصالحة له، ويترك ما عداه، وهو ما يسمى بعملية الانتخاب الطبيعي. فيقال له: إن معنى الانتخاب الطبيعي إنما يعني الاختيار، والاختيار يقتضي عقلاً يقصد ويرجح، فهل للنبات عقل؟ وهل الطبيعة مدركة لما تفعل؟

الطبيعة هذا الصنم الأبكم الأصم الأعمى، الذي ألّهته هذه الحضارة المادية، يوم أن تركت الدين جانباً، فالإيمان بالطبيعة والإيمان بالأصنام سيان، فكلاهما الإيمان بجماد لا يكافيء خيّراً ولا يعاقب شريراً ستر للحقيقة، وإنكار للآخرة حيث الحساب والعقاب، فبات الظالم أحسن حالاً وأكثر سعادة من المظلوم[٣].

(١) تفسير السمعاني ٧٧/٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٨١/٩، طبعة أولى، دار عالم الكتب ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
(٣) نقل الطبيب إسحاق بن على الرهاوي عن سقراط الحكيم اليوناني قوله: (فإنه لو كان الموت هو بوار الأمر كله، لكانت هذه فرصة الأشرار غذا ماتوا، وأن يستريحوا من البدن، ومن شرهم مع النفس التي هي في أبدانهم) أدب الطبيب ص ٤٥ ط١ مركز الملك فيصل للبحوث ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

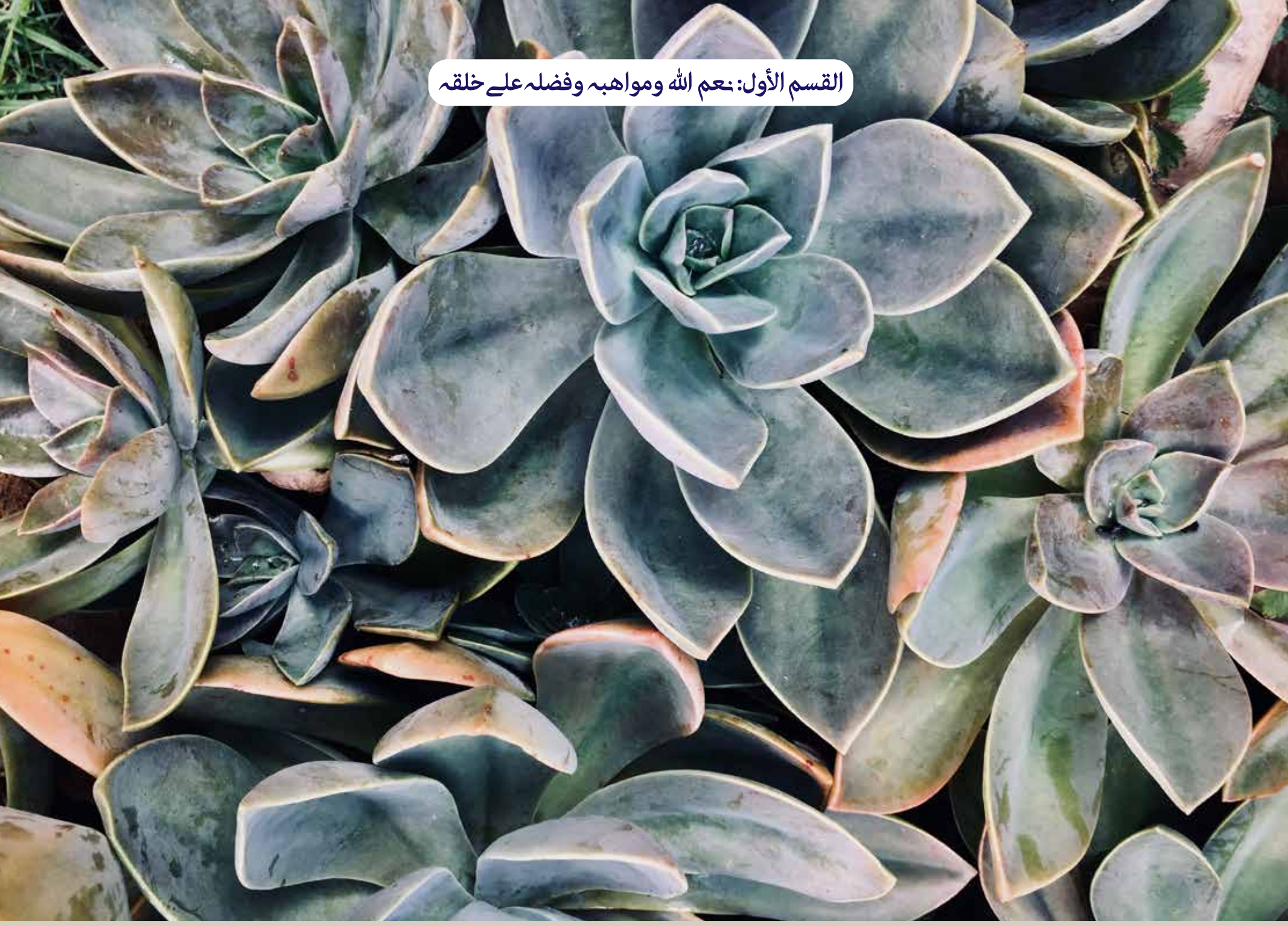

أهكذا تورد يا (عقل الحقائق؟).... لو أنصفت لقلت: ما استطعت حبس الشهوات، فسترت الحق مع إيماني به في قرارة نفسي، أو لشبهة اشتبهت مع الحق، فلجهلي ما عرفت كيف أتخلص منها.

وقد حدثنا الله عن الأصنام فقال جل شأنه: ﴿أَلَهُم أَرجُلٞ يَمشُونَ بِهَآ أَم لَهُم أَيدٖ يَبطِشُونَ بِهَآ أَم لَهُم أَعيُنٞ يُبصِرُونَ بِهَآ أَم لَهُم ءَاذَانٞ يَسمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدعُواْ شُرَكَآءَكُم ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ١٩٦﴾ [الأعراف].

فهذه الطبيعة البلهاء الصماء البكماء أرادوها أن تكون إلهاً فاعلاً، ولكنها صنم هوى تحت مطارق البرهان البديهي الواضح اليقيني القاطع الذي جاء به الإسلام، وسنقدم هذا البرهان للناس في هذا العصر الذي فتن فيه بعض أهله بهذه الفكرة السطحية، التي لادليل عليها إلا مجرد الظن، أي: الوهم.

لا إله إلا الله محمد رسول الله

القسم الثاني

براهين الإيمان و إقامة الحجة على البشرية

ومن أجل تمام النعمة، وكمال المنة، ودلالة الخلق على الخالق، ومن أجل معرفة الغاية التي من أجلها خلق الإنسان فوق هذه الأرض، فقد تلقَّفته رحمة الله بإقامة البراهين اليقينية، والآيات الظاهرة، والحجة البالغة، لكي يعلم الطريق الواصل إلى الله عز وجل، فإن الله تعالى طلب منه أن يعمر الأرض.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]

أي أوجب عليكم عمران الأرض[١] وذلك لا يكون إلا بإقامة العدل والبناء الحضاري الذي تتسق فيه المدنية المادية مع الدين، والقيم الأخلاقية، والمثل العالية، والرحمة والحب بين بني البشر وبذلك يثبت أن الخيار الوحيد لسعادة الإنسان فوق هذه الأرض هو:(الله أو الدمار). إما منهج الله المحقق لكل خير ومصلحة للإنسانية جمعاء، وإما انحراف يؤدي بالإنسان إلى الدمار، وهو ما شهدناه عبر مراحل مسار الإنسان على وجه الأرض.

(١)أنظر: احكام القرآن لابن العربي ١٠٥٩/٣، دار المعرفة، وأحكام القرآن للجصاص ٣٧٨/٤.

البرهان الأول

إحساس الفطرة

الفطرة لغة (الحالة من الفطر، وهو الابتداء والاختراع)[١] (يقال: فَطَرَهُ يَفْطُرُهُ: أي خلَقه)[٢].

وفي الاصطلاح هي (ما فطر الله عليه الخَلْق من المعرفة به ...قال أبو الهيثم: الفطرة: الخِلْقة التي يُخْلَقُ عليها المولود في بطن أمه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾ [الزخرف]، أي خلقني)[٣]. ورسولنا صلى الله عليه وسلم يكشف لنا هذا الأمر بقوله: (كل مولود يولَد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو يمجِّسانه أو ينصِّرانه)[٤].

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٤٥٧/٣.
(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور (٥٦/٥).
(٣) أنظر المصدر السابق.
(٤) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٢٤٦/٣.

فالفطرة إذاً هي أصل التكوين، وهذا هو الحق الذي يعتقده المسلمون، وذلك أن الله خلق الإنسان نقياً طاهراً مؤمناً بوجود خالق حي قائم على تربيته وتدبيره، وإذا ما طرأ عليه طارئ من انحراف، فإنما هو بتأثير مؤثرات خارجية، هي الأهواء والشهوات ومنها (حب الآباء وتقليدهم)، ثم الشبهات، فإذا سار الإنسان على الإيمان، فإنما يسير على فطرة الله التي فطره الله عليها، وإذا سار على غير ذلك كان سيره على خلاف هذه الفطرة التي فطره الله عليها، فالإيمان بالله مركوز في أعماق النفس البشرية، وهذا الحس الباطني بوجود الله تعالى المغروز في خلايا الإنسان، نوع من دليل الحس، ولا جدال في المحسوسات، ومما يدل على ذلك أيضاً أنه عندما تفسد الفطرة سرعان ما تستيقظ هذه الفطرة عند الشدائد، بل كلما كانت المصيبة والعجز أشد،كان اليقين بالله أوفر وآكد، قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣] ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلبَحرِ ضَلَّ مَن تَدعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُم إِلَى ٱلبَرِّ أَعرَضتُم وَكَانَ ٱلإِنسَٰنُ كَفُورٗا٦٧﴾[الإسراء] والمعرفة التي تحصل من أحوال الاضطرار أشد رسوخاً في القلب من نتائج الأفكار حال الاختيار.

وهكذا فمعرفة الله لا تحتاج لدليل عقلي أو برهان نظري، فإن الفطرة تشهد بضرورتها وبديهية فكرتها بالصانع الحكيم[1].

وهكذا نجد أن المؤمن يعيش في توازن بين مطالب روحه وحاجات جسده، وبين أصل خلقته، وبين منهجه في السلوك والتشريع والحياة، ومثل هذا التلاقي والتواؤم والانسجام لا يوجد إلا في ظلال الإسلام.

(١) أنظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٤/٧٥-٧٦.

فإذا ما نظرنا إلى حياة المسلم نجد أنها في سعادة وأنس وطمأنينة، وهو على نقيض الحياة التي يعيشها غير المسلم من: انفصام في الشخصية، وعدم تواؤم بين الروح والجسد، وعدم توازن بين فطرة الله وبين المؤثرات الخارجية عليها.

لذا كان إيماننا بأن جميع الناس ولدوا على الفطرة، وهذه أول منحة منحنا الله إياها في الدلالة عليه سبحانه وتعالى.

فالناس جميعاً في الحقيقة مؤمنون بالله، ومقرون بفطرهم وقرارة أنفسهم بوجود الله تعالى، والكافر هو أيضاً مقر بذلك، ولكنه يستر الحقيقة، وهذا هو معنى الكفر، وأسباب هذا الستر تعود إما إلى الشهوات -وقد قيل: المعاصي بريد الكفر- وإما من الشبهات التي يزخرف بها شياطين الإنس فضلاً عن الجن ﴿ٱلَّذِي يُوَسوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ٦﴾ [الناس].

وقد قال علماء الإسلام إن (أسباب خطأ الإنسان أربع: الحرص، والحسد، والغضب، والشهوة)، وقد ورد عن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله لولاته: (لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم).

فمنع الإنسان حق الكفاية في العيش الكريم: مطعماً وملبساً ومسكناً وزواجاً وعلاجاً ... يجعل الإنسان غضباناً فيكون حاقداً وقد يؤدي إلى كفره، ويستر الحقيقة.

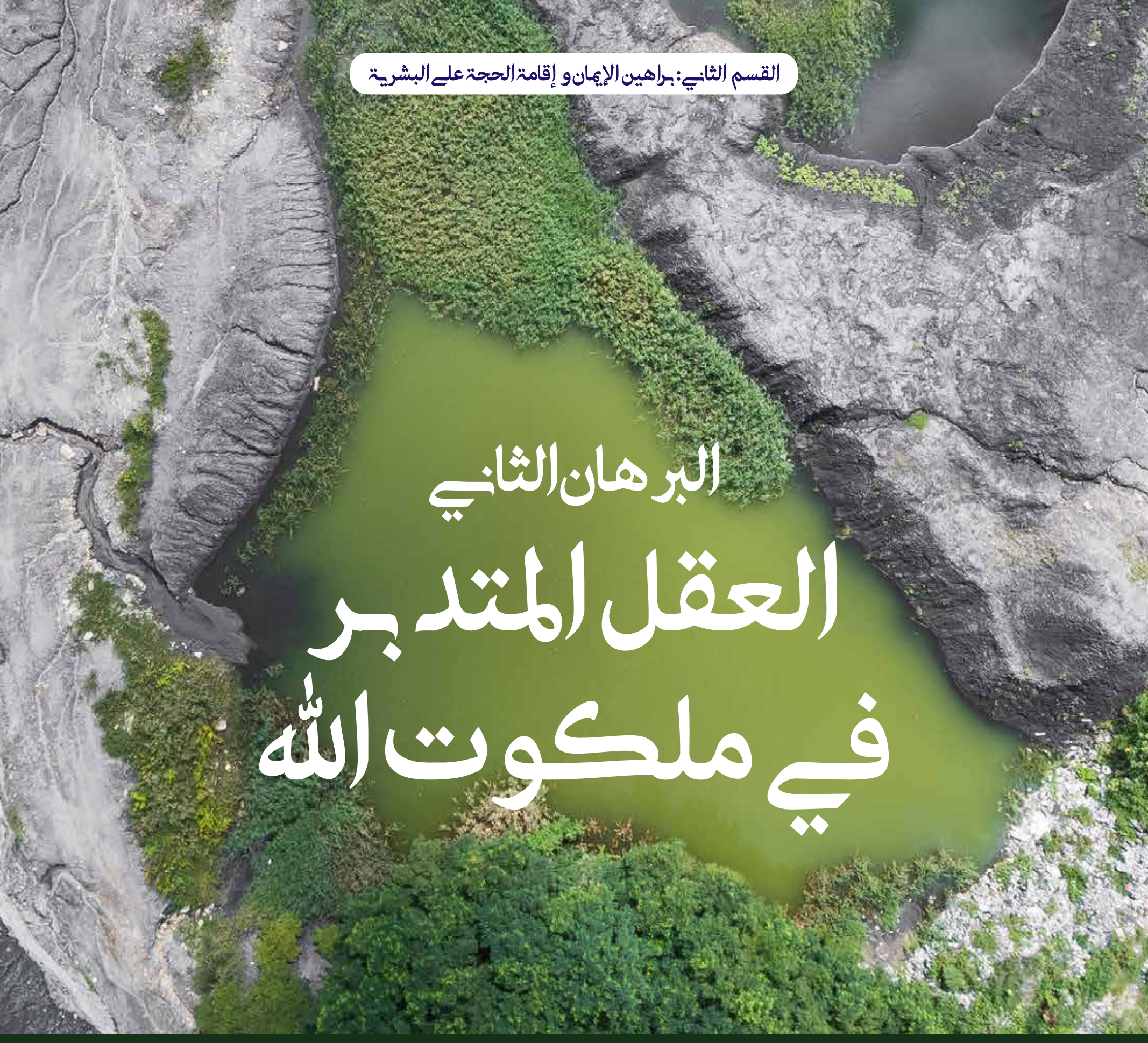

البرهان الثاني

العقل المتدبر في ملكوت الله

العقل: أسمى شيء في الإنسان، وهو أعظم منحه من الله للإنسان، كرم به تكريماً لا مثيل له، وبه تميز عن عالم الأنعام والحيوان.

وقد عدّ القرآن الكريم الذي يغفَل عن استعمال حواسه وعقله، ولا يبحث عن الحقيقة أنه أضل من الأنعام والحيوان، لأنه لم يستخدم وسائل المعرفة لما خلقت له، وبقي يلهث وراء شهواته وغرائزه قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلبُكمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَد ذَرَأنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلجِنِّ وَٱلإِنسِ لَهُم قُلُوبٞ لَّا يَفقَهُونَ بِهَا وَلَهُم أَعيُنٞ لَّا يُبصِرُونَ بِهَا وَلَهُم ءَاذَانٞ لَّا يَسمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلأَنعَٰمِ بَل هُم أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف]،

ويجعل القرآن الكريم العقل المتبصر المتدبر أساساً للنجاة من النار، والفوز بالجنة، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَو كُنَّا نَسمَعُ أَو نَعقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [الملك]، وقد اعتبر الإسلام حماية العقل من المصالح الضرورية الخمس التي جاءت الشريعة للمحافظة عليها، وهي حماية كاملة تنتظم حمايته من الشبهات، والأفكار المدمرة، والقيم المنحطة التي تؤدي به إلى الهلاك، وتحميه من المسكرات والمخدرات، فحرّم الإسلام كل ما من شأنه أن يزيل العقل، ويلغي وجوده، وحرّم القليل من الخمر وإن لم يسكر، سداً للذرائع ودفعاً للمفاسد، احتياطاً لما قد يؤول إليه شرب القليل من التمادي إلى شرب الكثير، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»[1].

فالإسلام يريد أن يسد منافذ الشيطان، ويقطع دابر الشر عن العقل احتراماً وتقديراً له، واعتباراً لدوره في تحقيق الاستخلاف في عمران الأرض، وإقامة أوامر الله التي وضعها لمصالحهم وسعادتهم، وقد تعددت الآيات القرآنية صراحة وإشارة في مخاطبة العقل للنظر والتأمل والبحث وجعلت التفكير فريضة إسلامية، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ وَمَا تُغنِي ٱلآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَومٖ لَّا يُؤمِنُونَ١٠١﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ رَبَّنَا مَا خَلَقتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [الأنفال].

(١) أخرجه من حديث جابر أبو داود (٣٦٨١) والترمذي (١٨٦٥) وقال: (وفي الباب عن سعد وعائشة وعبد الله بن مسعود وابن عمر وخوات بن جبير. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من حديث جابر) وأخرجه النسائي (٥٦٠٧) وابن ماجه (٣٣٩٤) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدة مرفوعاً. قال الألباني: (حسن صحيح) وأخرجه ابن ماجه (٣٣٩٢) وأحمد (٥٦٤٨) عن عبد الله بن عمر. قال مخرجوه: حديث قوي وهذا إسناد ضعيف. (فيه) أبو معشر... ضعفه غير واحد من الأئمة.

وقد أكد الدارسون لمسائل إعمال العقل والتفكير في ملكوت السموات والأرض أن « فريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها، فهو يخاطب العقل الوازع، والعقل المدرك، والعقل الحكيم، والعقل الرشيد، ولا يذكر العقل عرضاً مقتضباً، بل يذكره مقصوداً مفصلاً على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان» ولأهمية العقل في الوصول إلى العلم، يتساءل المرء عن الطريق إلى تحصيل العلم بالأشياء والوصول إلى عقائد يقينية.

لنقف عند المعنى اللغوي لكلمة «العقل»، ففي أصل اشتقاق هذه الكلمة عند بعضهم، أنها تعني: (المنع والحبس). وعلماء الأمة مجمعون على أن تعلم العلم الشرعي والنظر والتأمل في ملكوت الله مع تصفية النفس والتجرد المحض من العلائق الجسدية، وترك الشهوات يؤدي بالإنسان إلى الوصول إلى الحقيقة من الطريق المستقيم، وفق منهج القرآن والسنة. فعلوم الشريعة مع تدبر العقل في النعم الجلية، والمنح السخية من رب البرية، وترك هوى النفس كلها في مجموعها تؤدي إلى البصيرة، وتؤدي به إلى أن يكتشف ما أودعه الله في هذا الكون الرحب الفسيح من العبر والآيات والنعم.

ولكي يعلم بعد كل ذلك أن هذه النعم هبة من الله، ومنحة منه، فصار نور العلم الرباني إذا وصل إلى العقل السليم أثمر يقيناً صادقاً، وإعمال العقل في هذا الشأن ضرورة واجبة في دين الإسلام، بينما اعتبر رجال الكنيسة أن مصدر المعرفة الوحيد هو:(الوحي أو الكنيسة) ونُبذ العقل. يقول القديس (أنسلم): «أنا لا أعرف لأؤمن بل أؤمن لأعرف. لأنني إذا لم أؤمن فلا يمكنني أن أعرف» وقال الرسول (بولس): (سأبدد حكمة الحكماء، وأنبذ معرفة العارفين). فحاربت الكنيسة العلماء حرباً شعواء وصلت إلى حد إحراق (جيوردانو برونوا) عام ١٦٦٠م، وتم سحب العالم الكبير (جاليلو)، وتم إجباره في المحكمة عن تغيير فكرته عن دوران الأرض، والتي اعتبرتها الكنيسة ثابتة، وحصل الصدام بين الدين والعلم.

يقول عالم الرياضيات والفيزياء (ولسن ديفيس) في كتابه «المكان والزمان في الكون الحديث»: (لقد ابتعد العلم كثيراً عن المفهوم التوراتي لنشأة الكون). ولكن القرآن والسنة قد جاءا بنقض هذه الفرية، فإن العلم والعقل السوي السليم والدين يسير الكل في وحدة متسقة، فليس من اللائق أن يكون العقل الذي أعطانا الله إياه عقلاً معطلاً، بل إنه عقل متدبر في ملكوت الله الرحب، من سماوات وأرضين تجعل العاقل يدرك من خلال تأمله وتفكيره أن وراء هذا الإحكام في الخلق: حكيم، ووراء هذه الدقة في التقدير: إتقان صانع قدير، فإذا سرح عقله متأملاً في النتائج التي يراها قد تجلت فيها مظاهر الحكمة، وحسن الصنعة، وعظيم التدبير: علم علم اليقين أن وراء هذه الحكمة: قاصد حكيم، وأن وراء هذه النعم: جواد كريم، وأن مدبر ملكوت السموات والأرض: حي قيوم، جليل عظيم، ولذلك أمرنا ربنا عز وجل أن نتأمل في الملكوت الرحب، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ وَٱختِلَٰفِ ٱلَّيلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰت لِّأُوْلِي ٱلأَلبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰما وَقُعُودا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ رَبَّنَا مَا خَلَقتَ هَٰذَا بَٰطِلا سُبحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران]

وقد يسأل الإنسان الذي تاهت به السبل عن المنهج الحق في استعمال العقل للدلالة على الخالق فنقول له: إن المنهج السوي، والمنهل الروي، والطريق الأسلم، والأعلم والأحكم: هو منهج القرآن الكريم الذي أجمل الله فيه هذه القضية الكبرى في أوضح برهان عقلي أطلق عليه علماء الإسلام: دليل الاختراع، فقد قال الله عز وجل: ﴿أَم خُلِقُواْ مِن غَيرِ شَيءٍ أَم هُمُ ٱلخَٰلِقُونَ٣٥﴾ [الطور]، ثم تحداهم عز وجل فقال: ﴿أَم خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ٣٦﴾ [الطور]

وملخص هذا المنهج القرآني الذي أخبرنا به ربنا عز وجل أوجزه في ثلاث بديهيات يقينية:

• البديهية الأولى: •

أن كل فعل لابد له من فاعل، وهذا من أبده المسلمات العقلية، فالإنسان حادث على سطح الأرض، وُجِدَ بعد أن لم يكن، قال تعالى: ﴿هَل أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان] وقال أيضاً: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ [البقرة:٢٨] فلا يمكن للمرء أن يكابر ويدعي وجود حادث بدون محدث أحدثه، فهذه قضية فطرية بديهية يقينية أجمعت العقول عليها قديماً وحديثاً. إلا إذا صار يفكر كالطفل الصغير، فعندما تسأله من كسر الزجاج؟ فيجيبك ليبعد التهمة عنه، ويقول: لقد انكسر بنفسه. وتضحك ساخراً من بطلان جوابه، لأن من أبده البديهيات أن الفعل لابد له من فاعل.

• البديهية الثانية: •

أن هذا الفعل (خلق الإنسان المعقد في صنعته، البديع في تكوينه، المخلوق في أحسن تقويم) مرآة لقدرة الصانع الحكيم سبحانه ولبعض صفاته، فأنت تقرأ بعقلك وتنظر بعين البصيرة والتدبر كثيراً من صفات الفاعل من خلال فعله، فمثلاً هذا الجنين الذي تكون في رحم أمه من أين له طعامه وشرابه وتنفسه؟ ثم هو في بطن أمه عاش يسبح في ماء المشيمة وراء ظلمات ثلاث ﴿يَخلُقُكُم فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُم خَلقًا مِّن بَعدِ خَلقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ [الزمر:٦].

وهي: ظلمة المشيمة، وظلمة الرحم، وظلمة بطن أمه، فلما خرج منها وانقطع عنه رزقه بقطع الحبل السري المتصل بأمه، وجدنا له رزقاً جديداً في نهرين جاريين من حليب ثدي أمه دافئاً في الشتاء، بارداً في الصيف، ولما خرج علينا وجدنا له لساناً يصرخ به معلناً حاجته إلى الغذاء، وعينين يرى بهما، وقدمين مهيأتين للسير عليهما، إلى غير ذلك. كل ذلك ﴿فِيٓ أَحسَنِ تَقوِيمٖ﴾ [التين:٤].

ألا ترى بعين البصيرة أن الذي أوجده صانع عظيم، رحمن رحيم، لأنك إن فعلت ذلك وتدبرت في هذه الحقيقة فإنك ستقول وبكل ثقة: إن الذي أوجده رب منعم رحيم، لأنك ترى آثار هذه النعمة والرحمة التي حفته من البداية إلى النهاية، إنك تستطيع أن تقول وبكل ثقة واطمئنان: إن الذي أوجده خلاق عليم ﴿أَلَا يَعلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك] إذ هيأ له من وسائل السمع والبصر والكلام والحركة ما به يستطيع أن يمارس حياته في كل مرحلة من مراحل عمره.

وصماخ في الأذن، ومخاط في الأنف، وكل واحدة من هذه النعم في موقعها المناسب، تتجلى معها صفة الحكمة البالغة في حسن الخلق والتدبير.

وهكذا فعندما تستمر في قراءتك لخلق الإنسان: تستخرج صفات الكمال لله في القدرة، والقيومية، والخلق، وعلم الغيب والشهادة، والملك، والهيمنة، وحسن التكوين والحكمة، فنعلم علم اليقين أن من أوجده وخلقه هو الله وحده لا شريك له، وهو المتصف بهذه الصفات العظيمة ﴿لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٞ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]

إنك تقول ذلك بلسانك، وتعتقده بقلبك وجنانك، لماذا ؟ لأن ما سوى الله زيف وباطل، ومغالطة للعقل والحق، وانكار لأبده البديهيات اليقينية ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلحَقُّ فَمَاذَا بَعدَ ٱلحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

والقول بالمصادفة وهي مرجع من تنكر لله وجحده، تخذل صاحبها عندما تتكرر مظاهر الحكمة في الخلق، لأن المصادفة لا حكمة فيها ولا انضباط، وقلما تتكرر. فعامل الطباعة عندما يهز حروف المطبعة قد تتشكل معه كلمة، ولكنه لو هزها ملايين المرات هل تعود هذه الكلمة للتشكل ثانية؟ فكيف لو هزها وتشكل منها مؤلف علمي كامل؟ والإنسان والكون لم تستوعبهما المؤلفات بعد، ولله در القائل: إن هذا الكون كتاب مطوي لم يقرأ العلماء فيه إلا كلمات في غلافه. إذ أن هذا الكون البديع في خلقه، العظيم في تكوينه بهذه الدقة المتناهية، والنظام المحكم هو الناطق القوي بتهافت القول بالمصادفة، وسقوط دعواها.

أما أولئك الذين إذا سألتهم من أوجد هذا الوجود إنساناً وكوناً وحياةً وأحياء؟ تواروا وراء عبارة (الطبيعة)، وإذا سألتهم أليست الطبيعة فعيلة بمعنى مفعولة؟ أي: أنها مخلوقة، وكل مخلوق يحتاج إلى خالق، إذ قد علمنا بداهة أن لكل فعل فاعلاً، ثم تزيدهم حرجاً وتبطل دعواهم عند المنصفين من أهل الحق والعدل، عندما تقول لهم: أليست هذه (الطبيعة) أي المخلوقة كانت قبل وجودها عدماً، والعدم لا يوجد نفسه؟ ونفسك أيضاً قبل الوجود كانت عدماً، إذاً فهم بداهة غير قادرين على أن يحدثوا هذا الوجود ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦﴾ [الطور]

البديهية الثالثة:

أن الفاعل المزعوم (الطبيعة) لا يقدر أيضاً على الفعل ابتداء وانتهاء، ولم يكن مدركاً فاعلاً بذاته، فقد نقل الرهاوي عن الفيلسوف اليوناني أرسطو قوله: (أليس بعجب أن تكون الطبيعة، وهي لا تفهم، منساقة إلى الغرض المقصود إليه، إذ كانت لا تتروى، ولا تفكر في فعل ما تفعله)[1] فالطبيعة مفعولة أي مخلوقة، وكل مخلوق محتاج لخالقه، وهذا من أبده المسلمات اليقينيات المركوزة في عقول بني الإنسان جميعا.

فلم يبق أمامك يا أيها الباحث عن الحق، ويا أيها السائل عن الحقيقة ببرهانها، وعظيم حجتها، وجلاء دليلها ـ والبراهين من حولك ناطقة بصفاء لا غبش فيه ـ إلا أن تعلم علم اليقين الذي لا يخالطه شك، ولا تزعزعه ريبة، وأن تعتقد وبكل ثقة أن الخالق المنعم الرازق المدبر لملكوت السموات والأرض هو الله الحي القيوم ولا شيء غير الله. وإذا كان الأمر كذلك فإنه وحده الرب المنعم المحبوب المعبود المطاع: ﴿أَلَا لَهُ ٱلخَلقُ وَٱلأَمرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

(١) أدب الطبيب - لإسحاق بن علي الرهاوي ٤٥/١.

البرهان الثالث

برهان العناية

كل شي في الكون هادف فلابد من فاعل قاصد حكيم

وجد العلماء أن معظم الأشياء التي اكتشفوها في هذا الكون تعمل وفق خطة مدروسة متقنة، تهدف إلى خدمة الإنسان، ومعاونته في صلاح عيشه لاستمرار حياته.

وأول ما تتضح هذه العناية في خلق أعضاء الإنسان بشكل موافق ومناسب له، فالأسنان لا تخرج إلا عندما يبدأ الطفل بالاستغناء عن حليب أمه، وتظهر حاجته لأكل الطعام، ثم كانت هذه الأسنان بهذا الترتيب الهندسي الرائع قواطع في الأمام، فأنياب، فأضراس عريضة لطحن الغذاء، ثم كان اللعاب ليساعد على ترطيب الطعام ثم وجد اللسان ليقلبه كيف يشاء، وليدفعه للخلف لبلعه، وعند وصوله إلى المعدة تعاونت مع الكبد والمرارة، فأفرزوا أنواعاً من العصارات الهاضمة ليتحول الطعام إلى سائل قابل للامتصاص، فيتم ذلك في الأمعاء بهدف نقل النافع المفيد منها مع الدم إلى شتى أعضاء الجسم، فإذا ما وصلت هذه المنافع إلى الكبد خُزنت فيه، وعندما يحتاج الجسم إلى الحركة والمشي، يحول الكبد بعض هذا المخزون إلى سكر يُقذف في الدم بمقدار يوافق حاجته منه للحركة والعمل، ثم تنتهي الفضلات التي لا فائدة منها إلى أسفل البدن.

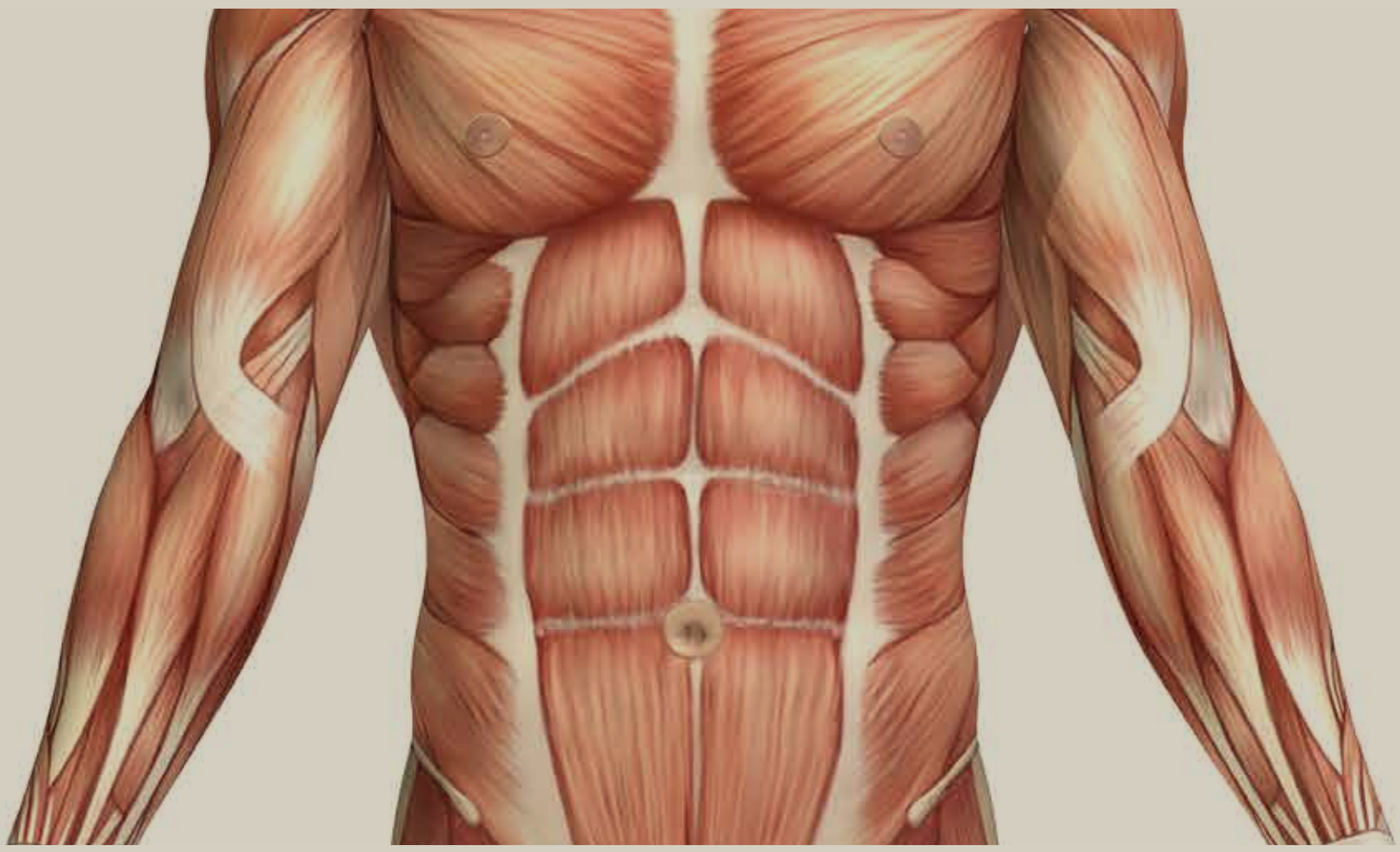

وإذا تأملنا أصابع اليد وجدناها مختلفة الطول لتعين على قبض الأشياء، لأنها تصبح عند القبض متساوية الطول، ولو وجدت في الأصل بطول واحد لما استطاع الإنسان استعمالها في قضاء حاجاته إلا بصعوبة.

وقد عد علماء التشريح قديماً ألف منفعة لأعضاء بدن الإنسان، ومع تقدم العلم تبين لهم أن كل خلية من خلايا الجسم لها وظيفة تقوم بها، بهدف تقديم منفعة للإنسان، فخلايا المفاصل مهمتها أنها تفرز سائلاً ليسهل حركة المفاصل، وفي العين خلايا تفرز مادة (الليزيوم) لتطهر العين، وتقتل الجراثيم عند دخول أي جسم غريب ...

ولما لم يجد العلماء قديماً وظيفة للزائدة الدودية في الأمعاء، قالوا بناءً على هذا التتبع (الاستقراء التام): لابد أنه كان لها عمل ووظيفة تقوم بها، قالوا: ربما كان ذلك عندما كان الإنسان نباتياً يقتصر في طعامه على أكل النبات[1]، فقد ثبت لهم ووقر في نفوسهم يقيناً وبشكل قاطع: أن كل شيء في الإنسان يعمل لهدف خدمة الإنسان، ومثل ذلك يقال في أعضاء الحيوان أيضاً.

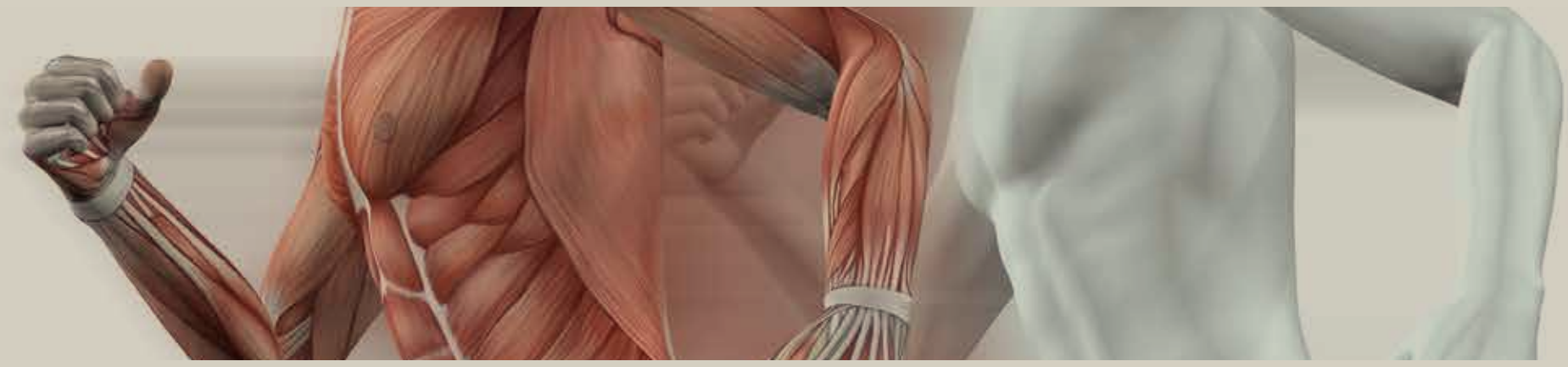

وتظهر هذه العناية تظهر أيضاً في شتى قوانين الكون، يقول حجة الإسلام الغزالي: (كما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة، فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة) [2].

فقوانين الكون تعمل حثيثاً لمدة عام كامل، ليخرج معها نبتة الطعام وحبة الغذاء للإنسان، ولولا أن كانت حركة الشمس والقمر ونشوء الفصول الأربعة عنها توافق خروج النبات، لما تم هذا الخير والنفع العظيم لاستمرار عيش الإنسان.

(١) فقد أفترض تشارلز داروين في كتابة "أصل الأنواع" عام ١٩٨٥م أعضاء ضامرة لم تعرف لها وظيفة في الإنسان سميت بالأعضاء الأثرية Rudimentary، وبلغ ما أحصاه عالم التشريح الألماني "روبرت ويدرشيم" ١٨٦ عضواً منها الزائدة الدودية، لكن أنحسرت لائحة هذه الأعضاء الأثرية المزعومة حتى تلاشت تماما حالياً، فكل التراكيب التشريحية في الحيوان والإنسان تؤدي وظيفة، والزائدة الدودية: عضو في الجهاز المناعي أول الأمعاء الغليظة يحميها من العدوى. إفادة من الدكتور الطيب/ محمد دودح

(٢) إحياء علوم الدين ١١٧/٤ وأنظر ١١٢/٤-١١٤.

بل إن القرآن الكريم لفت الانتباه إلى أن اختلاف تضاريس الأرض من سهول وجبال ووديان هو أيضاً أمر هادف، حتى لا يتيه الإنسان فيها، ويشق عيشه عليها، قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ١٥﴾ [النحل].

قال القرطبي: (وسبلاً: أي طرقاً ومسالك ... إلى حيث تقصدون من البلاد، فلا تضلون وتتحيرون) [1].

وهكذا عندما يتتبع العقل ما وجد على الأرض من الحيوان والنبات والجماد، يتبين له أن ذلك كله وجد من أجل نفع الإنسان، قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ٥﴾ [النحل].

بل إن جلدها وشعرها وصوفها ووبرها وجد أيضاً بهدف نفع الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل].

كما تظهر هذه العناية في خلق النبات، فمنها ما هو لغذاء الإنسان، ومنها ما هو لصنع لباسه كنبتة القطن، ومنها ما وجد لدوائه، قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥﴾ [يس].

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٩٠ - ٩١.

لكن تبقى هناك أشياء كثيرة في هذا الكون لم يهتد الإنسان بعد إلى معرفة الهدف من وجودها، ولكن الإنسان يلمح من خلال تتبعه الطويل إلى أنه: لابد من وجود هدف لها. والقرآن يؤكد هذه الحقيقة، يقول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلأَرضِ جَمِيعًا مِّنهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ١٣﴾ [الجاثية].

ومن هنا قال علماء الإسلام: (إن من الطرق التي دعا إليها القرآن الكريم في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى: طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات لأجله، وتسمى هذه الطريق (دليل العناية)... فجميع الموجودات موافقة لوجود الإنسان ... وتظهر موافقة كثير من الحيوان له، والنبات والجمادات وجزئيات كثيرة، مثل الأمطار والأنهار والبحار، وما تحمله الأرض والماء والهواء والنار، وكذلك تظهر العناية في أعضاء الإنسان والحيوان؛ أعني كونها موافقة لحياته ووجوده .... وأن هذه الموافقة هي ضرورة (أي بداهة) من قبل فاعل قاصد مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق (أي صدفة)) [1].

(١) مناهج الأدلة في عقائد الملة - لابن رشيد الحفيد ص ١٥١.

الفيزياء الذرية الحديثة تبطل النظرية المادية الطبيعية وتثبت وجود اللّه الرقيب على استمرار عمل ذرات الكون

إن الفلاسفة وعلماء الطبيعة أقروا أن كل شيء في هذا الكون مسخر لخدمة الإنسان، على نحو يحقق له كل حاجته، ولكن ما الذي جعل أصحاب (النظرية المادية) من أمثال (كارل ماركس) وأتباعه (لينين وانجلز) يقولون بأزلية الطبيعة الجماد، ولا يقرون بأزلية الله الخالق الحي القائم على تدبير هذا الكون ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:٧]؟ .والكون بما فيه من الإتقان والحكمة يدل على أنه لا بد من وجود متقن قاصد حكيم عليم لا بداية لوجوده !!

السبب في ذلك يعود إلى فيزياء القرن الثامن عشر، فيزياء العالم إسحاق نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧م) مع إنه بعد اكتشافه لقوانين الجاذبية، أرسل في خطاب شهير إلى صديقه (بنتلي) يقول له: "لست أصدق أن المادة الخالية من الحياة أو الإدراك يمكنها أن تعمل أو تؤثر على مادة أخرى بدون وساطة شيء غير عادي، وبدون اتصال ثنائي ... ولا أن الجاذبية كامنة في المادة، وفطرية جوهرية بالنسبة لها، لدرجة أن جسماً يؤثر في جسم آخر على بعد منه، ومن خلال فراغ. إن هذا بالنسبة لي شيء سخيف جداً حتى لا أصدق أن إنساناً أو في ملكة مؤهلة للتفكير في المسائل الفلسفية يمكن أن يقع فيه" [١].

(١) الفيزياء والفلسفة - لجيمس جينز ص١٥٩ - ١٦٠ ترجمة جعفر رجب - دار المعارف.

ولكن كما يقول الفيزيائي (هانز باجلز): "لقد ساندت الفيزياء التقليدية وجهة النظر العالمية المبنية على الحتمية ... فطبقاً لهذه الفيزياء تحدد قوانين الطبيعة الماضي والمستقبل في أدق التفاصيل، وكأن الكون شبيه بساعة بلغت حد الكمال، ما إن نعلم موضع أجزائها في لحظة معينة حتى نحدد أوصافها إلى الأبد" [١].

وأيضاً يقول (أسامة علي خضر): وهذه الفلسفة ظهرت في أحشاء نظرية النسبية (العامة) لأنشتاين، على الرغم من التصورات الثورية التي قدمتها هذه النظرية عن طبيعة المكان والزمان والمادة، إلا أن فكرة الحتمية والسببية، وخضوع الكون لقوانين موضوعية هي جوهر القضية عند أنشتاين. فمثلاً يستطيع الفلكي التنبؤ بمواعيد الخسوف والكسوف ومسارات المذنبات ... إلخ، حيث تتقلص العملية إلى مجرد إجراء عمليات حسابية رياضية لا غير [٢].

إلا أن النظرية المادية اهتزت في نظرية أنيشتاين (النسبية الخاصة عام ١٩٠٥م) عندما فجر مفهوماً هو أدق وأروع المفاهيم، وهو أن المادة وجه من وجوه الطاقة المكثفة، وصاغ أعظم معادلة في تاريخ علم الفيزياء: الطاقة = الكتلة X مربع سرعة الضوء [٣].

(١) القرآن والكون من الإنفجار العظيم إلى الإنسحاق العظيم ص ٤٤٦، ط أولى - وزارة الثقافة - صنعاء ١٤٢٤ - ٢٠٠٤.
(٢) القرآن والكون ص ٤٠٣.
(٣) القرآن والكون ص ٣٧٨-١٠٣-٣١٩.

فأثبت أن المادة ليست صلبة ـ كما تصورها نيوتن ـ، وأنها الحقيقة النهائية للكون ... بل المادة مفهوم مرن، فإن كتلة الجسم تزيد بزيادة سرعته، وتم إثبات ذلك في الأجهزة المخصصة التي تسمى (معجلات الجسيمات)، فإن معهد التكنولوجيا في كاليفورنيا استطاع في عام ١٩٥٢م أن يسرِّع الإلكترون حتى وصل إلى سرعة تقارب سرعة الضوء فزادت كتلة الإلكترون ٩٠٠ مرة.

وبهذا كان الانهيار للفكر المادي، فقد عُرف أن جوهر الكون هو الإشعاعات والطاقة وليست المادة، ثم جاءت الفيزياء الكمية الذرية أو ـ ميكانيكا الكم ـ (Quantum-Mechanics) فقلبت مفاهيم الفيزياء الكلاسيكية، وأطاحت بفكرة السببية والحتمية، وحل محلها الاحتمالات.

يقول الفيزيائي (جيمس جنز) في عنوان (انهيار الميكانيكا الكلاسيكية): "... فعندما كان علم الفيزياء التجريبي مهتماً بالعمليات التي تتم داخل الذرة، كانت الميكانيكا الكلاسيكية تثبت فشلها التام في ذلك المجال، ولعل أبرز فشل قابلته كان مع المشكلة الأساسية لتركيب الذرة [فقد] قدمت الفيزياء التجريبية مبررات قوية للتفكير في الذرة على أنها تتركب من مجموعة إلكترونات، وهي جسيمات سالبة الشحنة بالإضافة إلى شيء يحمل الشحنة الكهربية الكافية بالضبط لمعادلة مجموع الشحنات السالبة للإلكترونات، لأن الشحنة الكلية للذرة العادية تساوي صفرا دائماً.

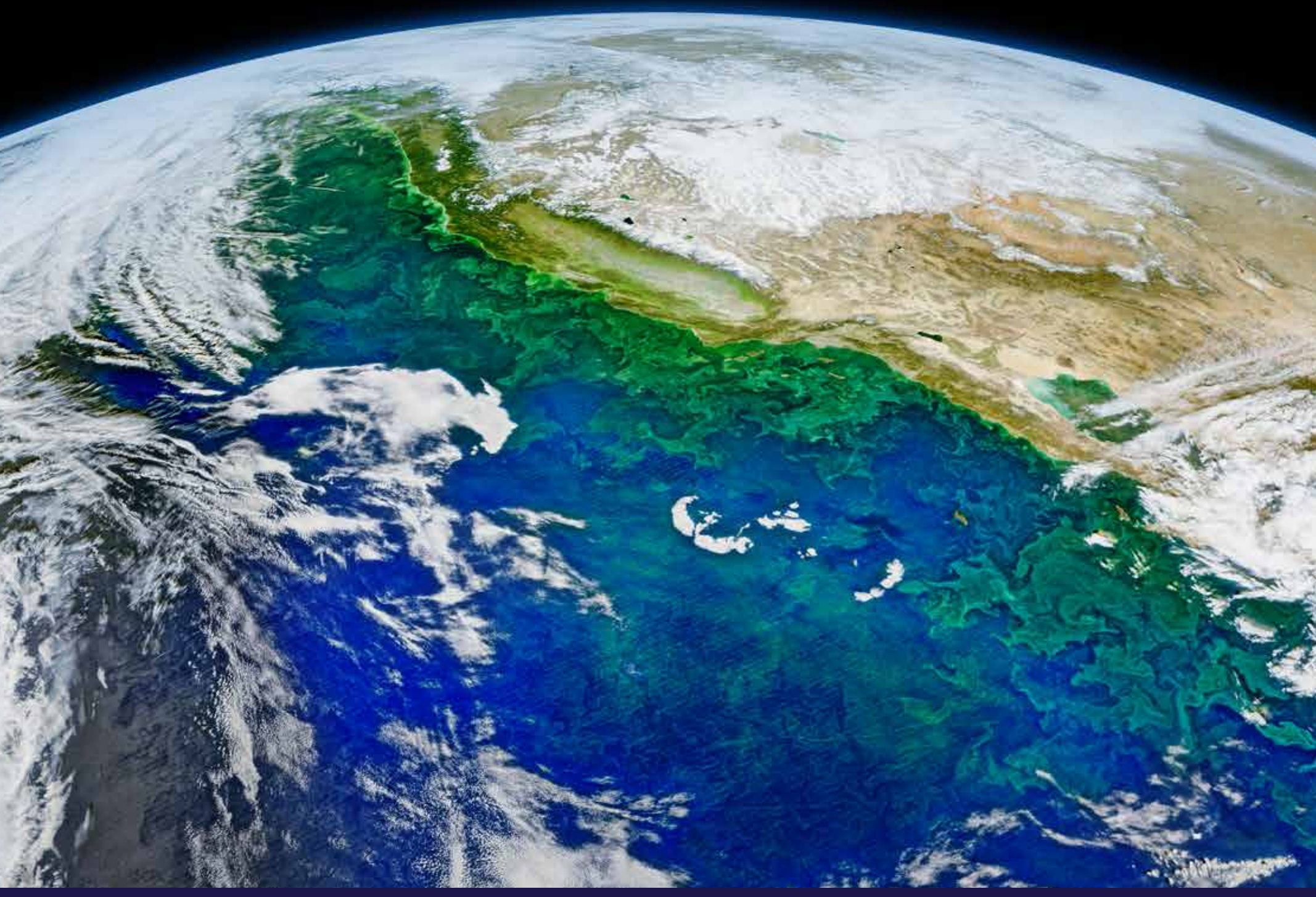

والميكانيكا الكلاسيكية ليس فيها ما يهيئ لتركيب من هذا النوع حجماً مستقراً، فهذه الشحنات لا يمكنها أن تظل ساكنة وإلا تساقطت على بعضها، كما أنه لا يمكن أن تستمر في الحركة، وإلا صارت كل منها آلة أبدية الحركة، وهو أمر لا تسمح به الميكانيكا الكلاسيكية" [1].

فقد أثبتت هذه الفيزياء الحديثة: أن خاصية التماثل والاتساق التي يتمتع بها المكان والزمان على المستوى الكوني الكبير تنهار تماماً على المستوى الذري، فالذرات، وهي البنية الأساسية للكون تحكمها قوانين فيزيائية مختلفة جذرياً عن فيزياء الكون الكبير ...

فالجسيمات الذرية تتحرك دون أن تتبع قوانين الميكانيكا التقليدية ... فهي لا تتحرك باستمرارية وانسياب من نقطة إلى نقطة، بل بشكل قفزات متقطعة لا يمكن التحكم في مساراتها ولا التنبؤ بها [2]، وكل ما يستطيعه الفيزيائي هو أن يعطي احتمالات فقط عن مسارات الجسيمات الذرية.

(١) الفيزياء والفلسفة ص ١٦٨.
(٢) القرآن والكون ص ٤٠٥.

وجاء (مبدأ عدم التحديد) (اللا يقين) (Uncertainty-princple) لهاينزنبرغ الذي حصل على جائزة نوبل على هذا الاكتشاف، لينسف كل معتقدات النظرية الميكانيكية للكون، وأثبت هذا المبدأ أن هناك محدودية متأصلة في معرفتنا بقوانين الذرة، فانهارت الحتمية والسببية من الفيزياء الكمية.

بل سحب (هايزنبرغ) مبدأ عدم التحديد على (الطاقة والزمن)، فقد كان الاعتقاد في الفيزياء التقليدية: أن الطاقة لا تفنى ولا تستحدث، ولكن تتحول من صورة إلى أخرى، فهناك على المستوى الذري أحداثاً يمكن فيها للإكترون اقتراض طاقة على أن يتم تسديد القرض بسرعة كبيرة، وكلما زادت كمية الطاقة المقترضة كان السداد أسرع.

ومن ثم حتى نتأكد أن الطاقة محفوظة، يتوجب أن نقوم بإجراء قياسات في لحظتين مختلفتين (تماثل الزمن) للتأكد أن كمية الطاقة منحفضة ...

إلا أن مبدأ عدم التحديد يرفض هذا التأكد، بسبب أن الزمن لم يعد متجانساً على المستوى الذري، وهذا ما فتح الباب لإمكانية تعطل قانون حفظ الطاقة في فترات قصيرة جداً، بمعنى أنه يمكن للطاقة أن تظهر فجأة، ثم تعود لتختفي بعد فترة قصيرة [1].

(١) القرآن والكون ص ٤٤٧.

كذلك جاءت الفيزياء الكمية لتدشن مفهوماً يعد من أعظم المبادئ العلمية على الإطلاق، وهو أن ما وراء هذا الكون هو الوعي ... وتم هذا الاكتشاف على يد الفيزيائي (نيلز بوهر) (١٨٨٠ - ١٩٦٢م) الحاص على جائزة نويل عام ١٩٩٢م.

فقد أثبتت التجارب التي أجريت عدة مرات وبدقة تفوق التصور [١]، أنه طالما لا أحد يجري قياس ما على الإلكترون، فإنه يتصرف على هيئة موجات احتمالية (دالة الموجة)، وهذه الموجة تكون متفشية في الفضاء، ويمكن للإلكترون (الجسيم) أن يكون في أي موضع فيها، وبمجرد إجراء عملية الرصد والقياس تنهار وتتقلص موجة الاحتمال (دالة الموجة) لتتحول إلى جُسيم نقطي محدد.[٢]

(١) القرآن والكون ص ٤٥٤.
(٢) القرآن والكون ص ٤٤٩، ١١٥-٤٥٣، ٤٥٠.

يقول الفيزيائي (هانز باجلز) في كتابه (رموز الكون): "تكمن الصفة الكمية الخارقة للطبيعة في إدراك أنه طالما أنك لا تقوم فعلاً بالكشف عن إلكترون ما، فإن سلوكه يكون هو سلوك موجه الاحتمال، وإذا أنت نظرت إليه (أي الإلكترون)، فهو في هذه اللحظة جسيم محدود، ولكنه يعود إلى التصرف كموجه حالما تكف عن النظر إليه ... إن هذا لغريب وخارق للطبيعة" [١]، ويقول الفيزيائي الفلكي (ستيفين هوكنج): "لابد أن يكون هناك كائن خارج الكون يراقبه، لكي تنهار الدالة الموجبة للكون، لتصبح الواقع الذي نشاهده، فبدون هذا المراقب سيتبخر هذا الكون إلى مجرد دالة اختبار" [٢].

ويقول الفيزيائي (فريد آلان وولف): "إن الوعي هو العنصر الخلاق في هذا العالم، ولكن ما هو هذا الوعي؟ ... إنه ذلك العنصر الذي يقع خارج العالم المادي، والذي يقلص موجة الاحتمال مستخرجاً النتيجة المرجوة" [٣].

ويقول عالم الفيزياء النظرية (يوجين فيجنر): "عندما تم توسيع نطاق النظرية الفيزيائية لتشمل الظواهر الذرية من خلال استحداث ميكانيكا الكم عاد مفهوم الوعي إلى المقدمة ... إذ لم يعد ممكناً صياغة قوانين ميكانيكا الكم بشكل مسبق محلياً دون الرجوع إلى الوعي" [٤].

(١) القرآن والكون ص ٤٥٤ وأرجع إلى كتابة رموز الكون.
(٢) أنظر: القرآن والكون ص ٤٥٤.
(٣) أنظر: القرآن والكون ص ٤٥٥.
(٤) أنظر: القرآن والكون ص ١٠.

ويقول عالم الفيزياء والفيلسوف (فريتجوف كابرا): "... لا نستطيع في الفيزياء الذرية أن نتحدث عن خصائص شيء ما إلا في سياق تفاعل الشيء مع المراقب" [١].

ويقول عالم الفيزياء والفلك (جيمس جينز): "لقد اكتشفنا أن الكون يشهد بوجود قوة منظمة يمكننا تسميتها بالذهن الرياضي" [٢]، ويقول عالم الفيزياء الفلكية (هوبرت ريفر): "يبدو أن الذكاء متضمن في مصير الكون" [٣].

وهكذا كما يقول (أسامة علي خضر): "إذا كانت موجة الاحتمال الإلكترونية تنهار وتتقلص عندما يتعرض الإلكترون للمراقبة والرصد، لكن من الذي يقوم بهذه المراقبة والرصد من خارج الكون حتى تتحول الأشياء إلى حقيقة؟ إنه الله جل جلاله خالق الكون، وهو القوة المطلقة الذي أظهر هذا الكون إلى حيز الوجود ... ولا مفر من هذا الاعتراف الذي نطقت به التجربة العلمية" [٤].

يقول عالم الكيمياء والفلك (إسحاق عظيموف): "إن الأبحاث الفلكية حتى الآن لم تسفر عن شيء يمكن أن يشكل تفسيراً للخلق ليستند إلى الطبيعة البحتة" [٥].

وهكذا فقد أثبتت البحوث الذرية أن السببية لم تعد تحكم الذرة وقوانينها، وبهذا لا مجال إلى أن نسلسل العلل إلى ما لا نهاية، فالسببية الفيزيائية فشلت في تفسير وجود الكون، وبما أن السببية لم تعد تحكم الذرة وقوانينها فالعلماء اليوم يؤكدون أن حادثة خلق الكون ليس لها قانون سببي مادي [٦].

(١) أنظر: القرآن والكون ص ١٠.
(٢) أنظر: القرآن والكون ص ١٠.
(٣) أنظر: القرآن والكون ص ١٠.
(٤) أنظر: القرآن والكون ص ٤٥٤.
(٥) أنظر: القرآن والكون ص ١١.
(٥) أنظر: القرآن والكون ص ٦٩ - ٩٥.

البرهان الرابع

إرسال الرسل عليهم السلام فلابد من وجود الله المرسل

منذ أن خلق الله البشرية على ظهر هذه الأرض والرسالات لم تنقطع في أي عصر من العصور، أو في أي وقت من الأوقات، وكان أول نبي على وجه الأرض آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأول رسول نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتوالت بعثة الرسل والأنبياء بحيث لم تمض أمة بدون رسالة إلى أن ختمهم الله بخاتمهم، وسيدهم، وإمامهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. ولهذا كان إرسال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم منحة من الله سبحانه وتعالى أقام بها الحجة على الخلق.

أما من لم تصلهم دعوة أو تبلغهم رسالة، فإن أرجح الآراء فيهم أن الله سبحانه وتعالى يمتحنهم في عرصات القيامة امتحاناً يليق بهم، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، كما بين سبحانه في قوله: ﴿يَومَ يُكشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدعَونَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَستَطِيعُونَ ٤٢﴾ [القلم] [1].

وفي هذا تأكيد منه سبحانه على عدله، ونفي الظلم عنه سبحانه، حيث قال في محكم تنزيله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبعَثَ رَسُولًا ١٥﴾ [الإسراء:١٥]، وذلك بإقامة الحجة عليهم من خلال الرسل وإنزال الكتب. والمهم هنا أن النبوة أمر لا بد منه في إقامة الحجة على وجود من أرسل هذا النبي.

(١) وأنظر تفصيلاً وافياً للموضوع في كتاب أضواء البيان ٤٧١/٣ - ٤٨١.

إن الإنسان لو بقي مجرداً عن هدي الله، فسوف يتيه في دروب الحياة، وما أكثر الأفكار والآراء المتناقضة من حوله، فهو قد تؤثر عليه هذه المؤثرات الخارجية مما يراه حوله في تصرفات البشر، ومما قد يزين له شياطين الإنس فضلاً عن شياطين الجن من الشهوات والشبهات، ولا عاصم له في معرفة الحق الذي يجب أن يسير عليه، إذ لا تصور عنده لعالم الغيب الذي إليه مصيره إلا من خلال الأنبياء الذين أرسلهم الله عز وجل، لكي يدلوه على ما يجب عليه أن يعتقده، وكيف ينظم مساره في حياته؟ وقد كانت دعوة الأنبياء جميعاً إلى تحقيق العبودية الشاملة ـ عبادة وعملاً ـ لله عز وجل، فقد أرسل الله الرسل لتنقية الفطرة من الشوائب، ودلالته على الحق والمصلحة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرسَلنَا مِن قَبلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيهِ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء].

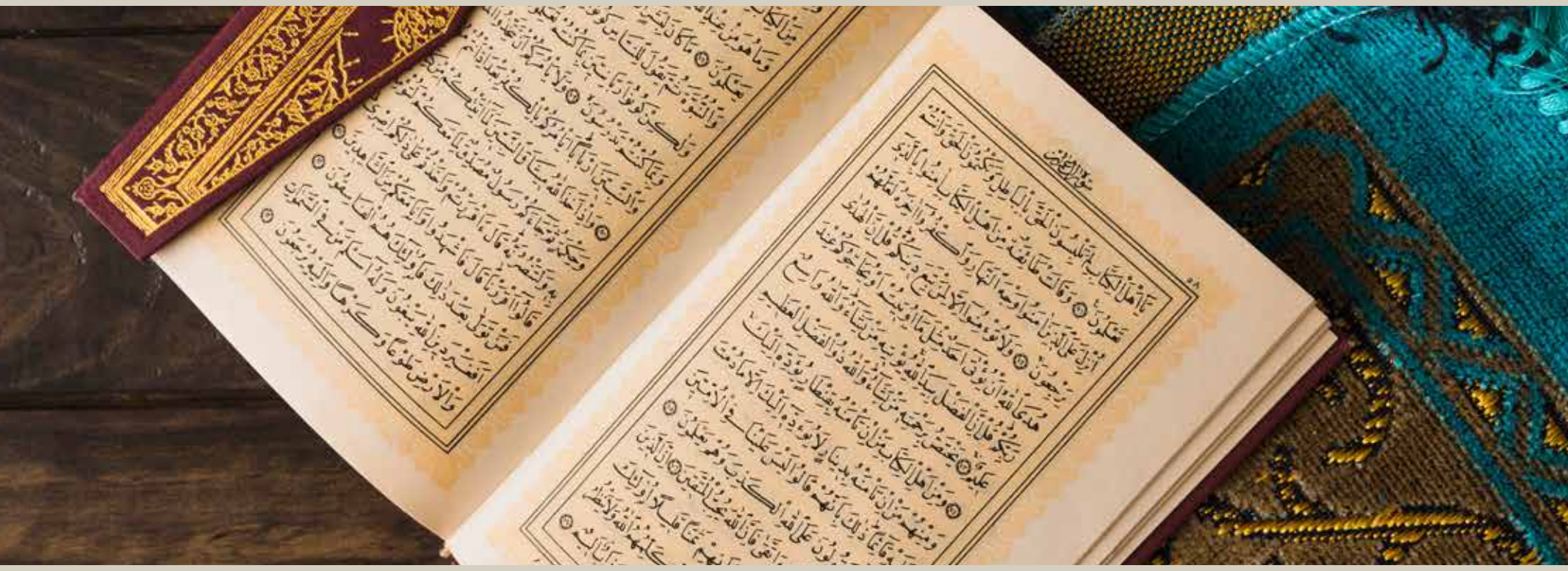

وكلمة إله لها في لغة العرب أكثر من اثنين وعشرين معنى، يجمع هذه المعاني كلها كلمتان: الأولى: الإله بمعنى المحبوب الذي لا يرقى على حبه حب آخر. والثانية: المطاع الذي لا يرقى فوق طاعته طاعة غيره، وهذان الأمران يشكلان معنى العبودية لله عز وجل، والتي قال عنها ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقتُ ٱلجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلَّا لِيَعبُدُونِ٥٦﴾ [الذاريات].

فإذا أخضع العبد قلبه وعقله وحياته وتصرفاته وتصوراته لمراد ربه خلص نفسه من عبودية ما سوى الله، وهذه العبودية التي تكون بالخضوع لله، وإتقان العمل طمعاً في رضى الله، وذلك حق لله على عباده. أليس هو خالقهم، أليس هو المنعم الرازق لهم، أليس هو المدبر لملكوت السموات والأرض، فمن حقه أن يكون هو المعبود الذي لا شريك له، والعبادة هذه يؤكدها أيضاً قوله عز وجل: ﴿قُل إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام].

ومحياي: أي عملي في حياتي الدنيا هو عبادة الله. وهذا يعني أن العبودية الشاملة هي التي تنتظم الحياة كلها عقيدة وعملاً وآداباً وأخلاقاً وتنظيماً لشئون الحياة كلها إنما تكون بطاعة الله فيما دلنا عليه من المصلحة. فالله تعالى لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن فساد قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، وتحقيق هذه العبودية يكون بالخلاص الحقيقي من عبودية الشيطان والنفس والهوى وجنود إبليس من البشر. وفي ذلك تكون الحرية الحقة، والكرامة الكاملة.

تأييد الرسل بالمعجزات القاهرة

ما من نبي إلا وهبه اللّه معجزة أيده بها، فما هي المعجزة؟ وما المراد بالإعجاز؟

المعجزة: هي الشيءُ الخارقُ للعادةِ، المقرونُ بالتَّحدِّي السالِمِ عنِ المعارَضَةِ [١].

ويراد بها الصيغة والطريقة التي تحدى الله بها كل قوم أرسل إليهم رسولاً ليعلموا أن هذا الرسول ما جاء بما جاء به من عقيدة تقتضي توحيد الله عز وجل وأحكام وشرائع من عنده، وإنما جاء به من عند الله سبحانه وتعالى.

(١) (أنظر فتح الباري ٥٨٢/٦) قال الحافظ بن حجر: (فمنه ما وقع له التحدي، ومنه ما وقع دالاً على صدقة من غير سبق تحدي).

وعلى هذا فالإعجاز هو التحدي، وعجز الإنسان عن القيام بما يطلب منه. وهو آية، أي: برهان ودلالة وعلامة على أن الذي قاله الأنبياء والرسل إنما هو من عند ربنا سبحانه وتعالى، فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الشيخين، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وكان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) [1] لأن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الكبرى هي معجزة عقلية باقية ومستمرة وهي القرآن الكريم الذي تحدى الناس به قديماً، وما زال هذا التحدي قائماً إلى اليوم؛ أن يعقدوا مؤتمراً لأدباء العربية كافة، ويصنعوا مثل هذا القرآن، ثم تنزَّل معهم إلى أن يأتوا بعشر سور ولو مفتريات، بل وصل الأمر إلى أن تحداهم إلى أن يأتوا ولو بأقصر سورة واحدة من مثله. قال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ٣٤﴾ [الطور].

وقال أيضاً: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ [هود].

وقال أيضاً: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ [يونس]، وكان الأمر معهم كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

(١) صحيح مسلم ١٣٩ وصحيح البخاري ٣/٩.

وقد كانت معجزة الأنبياء السابقين مناسبة لحال قومهم، فلما كان السحر فاشياً عند فرعون جاءه موسى عليه السلام بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقفت ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره. وكان أول من آمن لموسى عليه السلام هم السحرة، الذين هم أقوى حجة كانت في يد فرعون، لأن السحر ظاهرة خرافية تخييلية شيطانية، ابتلعتها حقيقة ربانية إلهية، والسحرة وهم أهل العلم بالسحر: أيقنوا يقيناً لا شك فيه أن ما جاء به موسى ليس سحراً، ولكنه إعجاز لا يقدر البشر على فعله. ولما قال لهم فرعون: لأقتلنكم، قالوا: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾[طه]، لأنه أكرههم على أمر خرافي قائم على التخييل وخداع البصر، ولكن الله تعالى جعل فيما أتى به موسى ـ عليه السلام ـ معجزة بهرت السحرة، فاستيقنوا أن هذا من عند الله تبارك وتعالى، بل وتيقن فرعون أيضاً أنها حق، ولكن هوى النفس منعه من الإقرار بها.

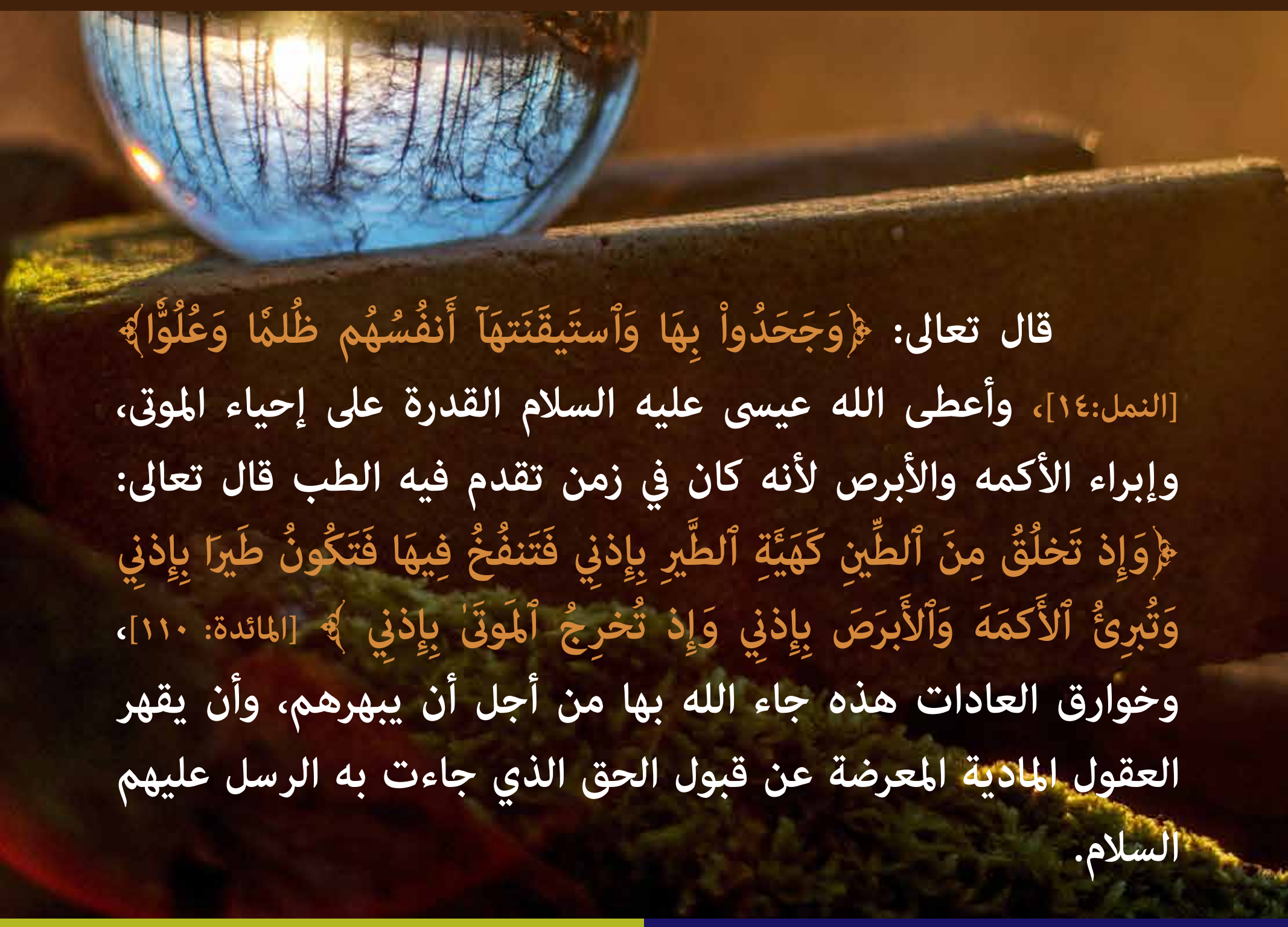

قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل:١٤]، وأعطى الله عيسى عليه السلام القدرة على إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص لأنه كان في زمن تقدم فيه الطب قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِي وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، وخوارق العادات هذه جاء الله بها من أجل أن يبهرهم، وأن يقهر العقول المادية المعرضة عن قبول الحق الذي جاءت به الرسل عليهم السلام.

فلما أشرقت أنوار رسالة الإسلام والتي بعث بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والتي جاءت في زمن أظلمت فيه جوانب الحياة وتسلط فيه الظلمة، وعم الجور وفسد التدين، فمقت الله أهل الأرض إلا بقية ممن كانت تعبد الله على ملة إبراهيم، كما مر في حديث عياض بن حمار عند مسلم، وعند ذلك أذن الله ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولم يعطه الله نوعاً واحداً من المعجزات، ولكن أعطاه أنواعاً كثيرة من الإعجاز، أظهرها وأهمها: ستة أنواع، لأن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الرسالة الخاتمة الدائمة المتجددة. ولو قدّر أن جاءت أمةٌ بعد هذه الأمة، واكتشفت من العلوم والتقنية ما يفوق علوم اليوم ألف مرة، لكان في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحقائق المبهرة المذهلة لعقول الناس ما يظهر الله به حجته في كل وقت، لتبقى آية الله متجددة مستمرة، ينكسر أمام عظمتها، ويذل أمامها كبار علماء الغرب والشرق المتخصصين في مختلف العلوم، وجاءت هذه المعجزات والدلائل على يد نبي أمي في عصر الجهل لا في عصر العلوم والمكتشفات، يأتي بحقائق منسجمة مع الفطرة، يقرها العقل السليم، ولا تتعارض مع حقائق العلم، وهو ما أثبته الفرنسي(موريس بكاي)، ودلائل نبوته صلى الله عليه وسلم مستمرة، تظهر في كل عصر، مما يدل على صدقه.

يقول مؤلف كتاب (دلائل النبوة): «... إن شذت واحدة بلغتهم أخرى، وإن لم تنجح واحدة، نجحت الأخرى، وإن درست على الأيام واحدة، بقيت أخرى، وفيه في كل حال الحجة البالغة» [1].

(١) دلائل النبوة ١/١٩.

سبحان الله وبحمده

أنواع الإعجاز التي أعطيت للنبي

صلى الله عليه وسلم

أولاً: الإعجاز المادي

أعطى الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم معجزات مادية محسوسة عديدة منها

01 الإعجاز المادي في القرآن الكريم:

معجزة انشقاق القمر، فقد عرض الدكتور عادل عبدالسلام أستاذ الجغرافيا في جامعة دمشق صورة للقمر أحضرها الرواد الأمريكيون للفضاء ـ وكما أخبرني الدكتور فاروق الباز أنهم صعدوا ست مرات للقمر ـ وفي هذه الصورة يظهر إنهدام في سطح القمر، امتلأ بالرمال، وسميت هذه المنطقة باسم بحر الرمال قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢﴾ [القمر].

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه (أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما) [(١)].

وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في منى إذ انفلق القمر فلقتين فكانت فلقة وراء الجبل وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشهدوا) [(٢)].

(١) صحيح البخاري (٣٨٦٨).
(٢) صحيح البخاري (٣٧٦٩) وصحيح مسلم (٢٨٠٠).

02 الإعجاز المادي في السنة النبوية:

وأبرز المعجزات المحسوسة في السنة النبوية:

نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم:

وقد حدث ذلك مراراً في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، وردت من طرق عديدة يفيد مجموعها العلم القطعي، وأشهرها ما أشار إليه حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: (عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة، فتوضأ فجهش الناس نحوه فقال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة) [1].

وفي هذا دلالة بالغة على أن الله على كل شيء قدير، كما أنه يبين للمسلم أنه متى اتكل على الله حق التوكل فإن الله سبحانه يكلؤه ويحفظه، ونبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم وتفجر هذا الماء بين يديه في ركوة -وهي إناء صغير- دليل قاطع مبهر، وبرهان جلي على صدق هذا النبي، وهو الآية والعلامة على أن هذه الأمة على الحق الذي لا مرية فيه. وهو أبلغ من معجزة موسى عليه السلام عندما ضرب الحجر، فانفجرت اثنتا عشرة عيناً، لأن الماء يخرج عادة من بين شقوق الصخور، ولا يخرج من بين لحم الإنسان ودمه.

(١) صحيح البخاري مع الفتح ٥٨١/٦ رقم ٣٥٧٦، وأنظر: نظم المتناثر من الحديث المتواتر رقم (٢٦٥)، حيث (قال عياض في الشفا:... فهذا النوع كله ملحق بالقطعي من معجزاته، كما بيناه...)

حنين الجذع

وقد ورد ذلك عن جمع من الصحابة نحو العشرين من طرق كثيرة صحيحة يفيد مجموعها العلم القطعي، ففي صحيح البخاري من حديث ابن عمر وجابر (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة فقالت امرأة من الأنصار ـ أو رجل ـ: يا رسول الله ألا نجعل لك منبراً، قال: إن شئتم. فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم فضمه إليه، يئن أنين الصبي الذي يسكن. قال: (كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها) [1].

تكثير الطعام

وقد تكرر ذلك في قصص مشهورة، في مجامع مشهودة، ففي صحيح البخاري.. (أطعم النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق أقراصاً من شعير وعناق ألفاً من الصحابة) [2]، وهي كمعجزة عيسى عليه السلام، حيث ورد في الإنجيل أنه أطعم من خمس أرغفة خبز خمسة آلاف إنسان [متى: ١٩/١٤].

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٣٥٨٤ وأنظر: نظم المتناثر من الحديث المتناثر رقم (٢٦٣)، حيث ذكر الشيخ عبد الرؤوف المناوي أنه: (ورد من طرق كثيرة صحيحة يفيد مجموعها التواتر المعنوي).

(٢) صحيح البخاري (٤١٠٢) وأنظر: نظم المتناثر من الحديث المتواتر رقم (٢٦٧)، حيث قال بعضهم: (إنها متواترة تواتراً معنوياً).

تسبيح الطعام

ففي صحيح البخاري (..ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل) [1]. وغير ذلك كثير مما ورد عن معجزاته الحسية صلى الله عليه وسلم ليس هنا مكان استقصائها. فهي موجودة في عدد من الكتب المؤلفة في هذا المجال مثل كتاب (دلائل النبوة) للحافظ البيهقي، وكتاب (الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى) للقاضي عياض، وكتاب (الخصائص الكبرى) للسيوطي، وغيرها.

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٣٥٧٩.

ثانياً: الإعجاز البياني

الإعجاز البياني من صيغ الإعجاز التي تجمع بين بلاغة اللفظ، وحسن المعنى، ولم يستطع البلغاء مجاراته أو محاذاته ومشاكلته، بل ينكر العلامة السيوطي أن هناك من هم بالمحاولة من قريش [1]، وصدق اللّه القائل

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود)

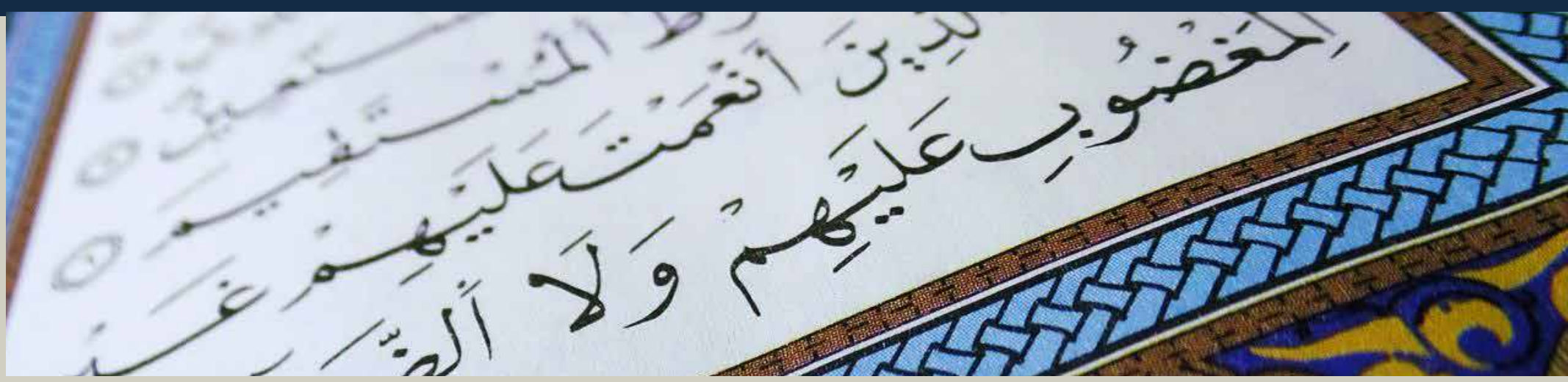

وقد تحدى الله عز وجل به كفار قريش والعرب، بل الإنس والجن، ولم يستطع أحد كائناً من كان أن يقاوم هذا التحدي، على الرغم أن قريشاً كانت حين نزل القرآن الكريم قد بلغت الذروة العليا في البلاغة والفصاحة، إذ قد صب الله جمال اللغة وبلاغتها في لسان قريش، مما جعلها الحاكمة على العرب في أسواقها كعكاظ وذي المجنة وذي المجاز.

ولذا تحداهم تحدياً صارخاً وكانوا أحرص الناس على تكذيبه صلى الله عليه وسلم وإبطال حجته، وتدرَّجَ معهم في مراتب هذا التحدي، إذ طَلَبَ منهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، الذي يتكلمون كلماته، ويعرفون معانيه، ثم تنزَّل فطالبهم بالإتيان بعشر سور من مثله ولو مفتريات، فلم يستطيعوا، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا.

(١) أنظر: الخصائص الكبرى، فصل الإعجاز القرآني.

قال بعض أهل العلم:

"إن الذي أورده المصطفى صلى الله عليه وسلم على العرب من الكلام الذي أعجزهم عن الإتيان بمثله أعجب في الآية، وأوضح في الدلالة من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، لأنه أتى أهل البلاغة، وأرباب الفصاحة، ورؤساء البيان والمتقدمين في الألسن بكلام مفهوم المعنى عندهم فكان عجزهم أعجب من عجز من شاهد المسيح عليه الصلاة والسلام عن إحياء الموتى، لأنهم لم يكونوا يطيقون فيه، ولا في إبراء الأكمه والأبرص، ولا يتعاطون علمه، وقريش تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة فدل أن العجز عنه إنما كان لأن يصير علماً على رسالته، وصحة نبوته. وهذا حجة قاطعة وبرهان واضح" [1].

فمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم هذه أبلغ من معجزات من سبق من الأنبياء، لأن الأنبياء السابقين صلوات الله عليهم وسلامه تحدوا أقوامهم بشيء لا يقدرون عليه، أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد تحدى أهل الفصاحة في خاصة كلامهم وبيانهم، فلم يقدروا على ذلك. ومعجزات الأنبياء مات من رآها، ولم يبق إلا تواتر أخبارها، (وليس الخبر كالمعاينة) [2]، لكنَّ معجزة محمد صلى الله عليه وسلم وتحديه أدباء العرب كافة على مرّ العصور أن يصنعوا ولو سورة واحدة، هو تحدٍّ باقٍ يقرِّه الناس في كل زمان ومكان، ويعجزون عنه.

(١) دلائل النبوة لأبي بكر البيهقي ١٦/١، ١٧ - طبعة أولى، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) حديث شريف. أخرجه أحمد ٢٥١/١، ٢٧١ والطبراني في المعجم الكبير (١٢٤٥١) وابن عدي في الكامل ٢٥٩٦/٧، والحاكم ٣٢١/٢ و٣٨٠ وابن حبان رقم (٦٢١٣) والخطيب في تاريخ بغداد ٥٦/٦، عن ابن عباس رضي الله عنهما - وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي. ومخرجو المسند (٢٢٤٨) وفيه هشيم مدلس، ولكن تابعه أبو عوانة عن ابي بشر به عن البزار (٢٠٠) وابن حبان (٦٢١٤) وغيرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم فِي رَيبٍ مِّمَّا نَزَّلنَا عَلَىٰ عَبدِنَا فَأتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثلِهِ وَٱدعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُم صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة]، فأمهلهم حتى يستعينوا بغيرهم من أهل الفصاحة والبيان.

قال البيهقي: "فهذا دليل قاطع على أنه لم يقل للعرب ائتوا بمثله إن استطعتوه ولن تستطيعوه إلا وهو واثق متحقق أنهم لا يستطيعونه، ولا يجوز أن يكون هذا اليقين وقع له إلا من قبل ربه الذي أوحى له، فوثق بخبره .." فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّم تَفعَلُواْ وَلَن تَفعَلُواْ﴾ [البقرة:٢٤]، ومن ناحية أخرى كشف الله عن خفايا قلوبهم، وأبان لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنهم كانوا يعلمون أن هذا حق، وأنه من المستحيل أن يكون من عند بشر، وما صدهم عن الاعتراف للنبوة إلا الكبر والحسد والعناد، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُم لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، فهذا أبو جهل يعلق على رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب بقوله مخاطباً العباس رضي الله عنه: إنا وإياكم كفرسي رهان، فاستبقنا المجد منذ حين، فلما تحاكت الركب، قلتم: منا نبي. فما بقي إلا أن تقولوا: منا نبيّة [1].

(١) أنظر: تفسير الدر المنثور للسيوطي عند الآية ٨ من سورة الأنفال.

ورغم تكذيب قريش ومعاداتها، كانت أساطينها وساداتها يتسللون ليلاً ليستمعوا إلى تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إعجاباً وانبهاراً وذهولاً من عظمة هذا القرآن وجماله، فقد روى ابن هشام: أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا إلى تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل واحد منهم لا يعلم مكان صاحبه، فباتوا يستمعون، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا؛ فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. وذلك لأن بيان القرآن، وجمال أسلوبه، ورقي لغته قد بلغ منهم مبلغاً قوياً في تأثيره ولم يستطيعوا مقاومة هذه البلاغة إلا بمثل ما فعلوا، ولكن صدهم عن الحق الكبر والغطرسة، وهذا عتبة بن ربيعة حين أرسلته قريش للنبي صلى الله عليه وسلم تطالبه بالكف عن سب آلهتهم وليحد من دعوته، فعرض عليه بعض المغانم مقابل ذلك [1].

فلما انتهى من كلامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه، قال: (أوقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فتسمع مني؟ قال: أفعل)، فقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَت ءَايَٰتُهُۥ قُرءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إلى أن وصل إلى قوله عز وجل: ﴿فَإِن أَعرَضُواْ فَقُل أَنذَرتُكُم صَٰعِقَةٗ مِّثلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١ - ١٣] [2].

(١) أنظر سيرة ابن هشام ٣١٥/١.
(٢) وأنظر تفسير ابن كثير ١٣٦/٤-١٤٣.

وكان أبو الوليد متكئاً فجلس وقبض على فم النبي صلى الله عليه وسلم، وبدلاً من أن يذهب إلى كفار قريش الذين أرسلوه وكانوا مجتمعين في دار الندوة عاد إلى بيته فلقيه في الطريق أبو جهل وقال له: يا أبا الوليد أين أنت ذاهب؟ وماذا وراءك؟ قال: دعنى فقد سمعت كلاماً ما سمعت مثله قط، ليس هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أوله لمثمر، وإن آخره لمورق.. لقد كان مذهولاً مأخوذاً بجمال هذا البيان وعظمته.

وقد تساءل الفيلسوف البريطاني (توماس كاريل) عند علماء الأزهر وكان قد درس اللغة العربية: لماذا لا يمكن أن يؤلف مثل القرآن؟ فما كان شاعر إلا وظهر من هو أفضل منه، ولا نبغ كاتب إلا وكان هناك من هو أبلغ منه. فقالوا له: حسناً تعال نَصِفُ سعةَ جهنم. فكتب بعض الجمل: إن جهنم واسعة أكثر مما تظنون، لو اجتمع الإنس والجن لأخذتهم جهنم، فضحك الأزهريون، فقال لهم: ماذا قال القرآن الكريم؟، فقالوا: قال الله تعالى: ﴿يَومَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمتَلَأتِ وَتَقُولُ هَل مِن مَّزِيدٍ ٣﴾ [ق]، فقال: مثل هذا لا يمكن أن يقوله أحد. فالآية على كلا احتماليي معنى الاستفهام إعجاز . فإن كان الاستفهام للتقرير: كان المعنى، وسعتهم يارب ومازال هناك متسع، وإن كان الاستفهام للإنكار: كان المعنى كلا يارب لم يبق مكاناً، فقد وسعتهم جميعاً.

ثالثاً: إعجاز الهداية

وهذا النوع من الإعجاز هو الغاية
والهدف الأسمى من القرآن الكريم، أما
غيره فهو تابع له، ووسيلة من وسائله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلقُرءَانَ يَهدِي لِلَّتِي هِيَ أَقوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلمُؤمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُم أَجرًا كَبِيرًا ٩﴾ [الإسراء]، وقد بين لنا القرآن الكريم أن الله تعالى هدى الإنسان إلى مراتب من الهداية:

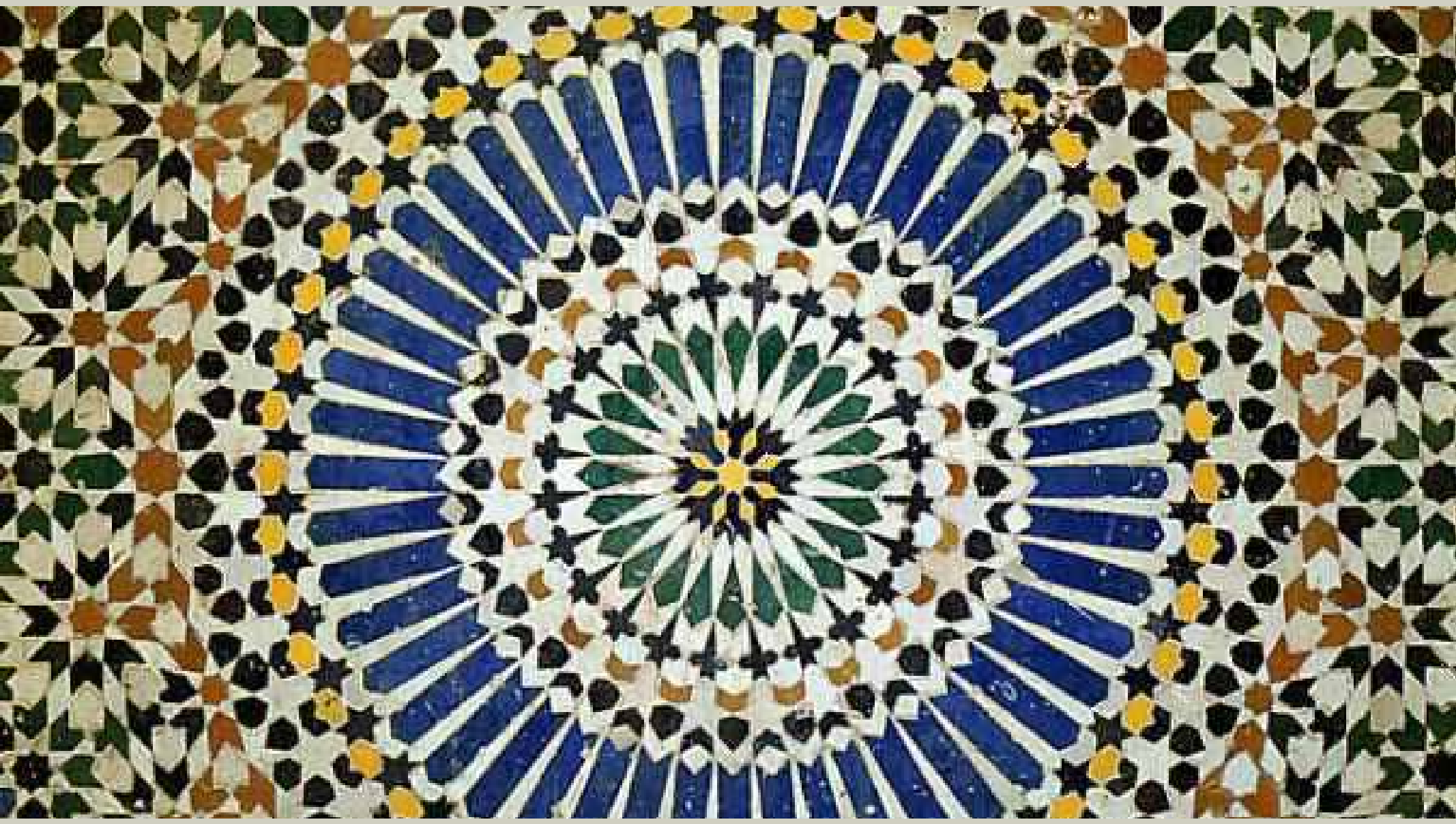

الأولى: الهداية التامة:

وهي هداية المخلوق الآدمي والحيوان لمصالحه التي بها قيام عيشه، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسمَ رَبِّكَ ٱلأَعلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣﴾ [الأعلى]، فالله سبحانه سوى خلقه واتقنه وأحكمه، ثم قدر له أسباب مصالحه في معاشه، وهداه إليها، فالهداية هنا تعليم.

الثانية: هداية التوفيق والإلهام والثبات على الحق:

فالإنسان وقد فطره الله على طلب المعرفة، ومن الناس- الذين خلصوا من المؤثرات الخارجية من الركون إلى التقليد، والتمسك بالأعراف القبلية والعنصرية- عندهم حب البحث عن الحقيقة ليهتدوا إلى الحق، ولكن شهوات الغي مانعة من وصول أثر الهداية إليهم. وقد أمرنا الله تعالى أن نسأله الهداية والثبات على الحق، وألا تخوننا إرادتنا، وذلك كل يوم خمس مرات في صلواتنا ونقول: ﴿ٱهدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلمُستَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة]، وهذه المرتبة من الهداية خص الله بها من شاء من عباده قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهدِي مَن أَحبَبتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعلَمُ بِٱلمُهتَدِينَ٥٦﴾ [القصص].

فحرم منها عم النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أقرب الناس إليه، فقد وقع تحت تأثير قومه، وقال: (أخاف السبة والعار)، ورزقها وثبت عليها سلمان الفارسي وبلال الحبشي، ومن شاء الله من عباده الأخيار.

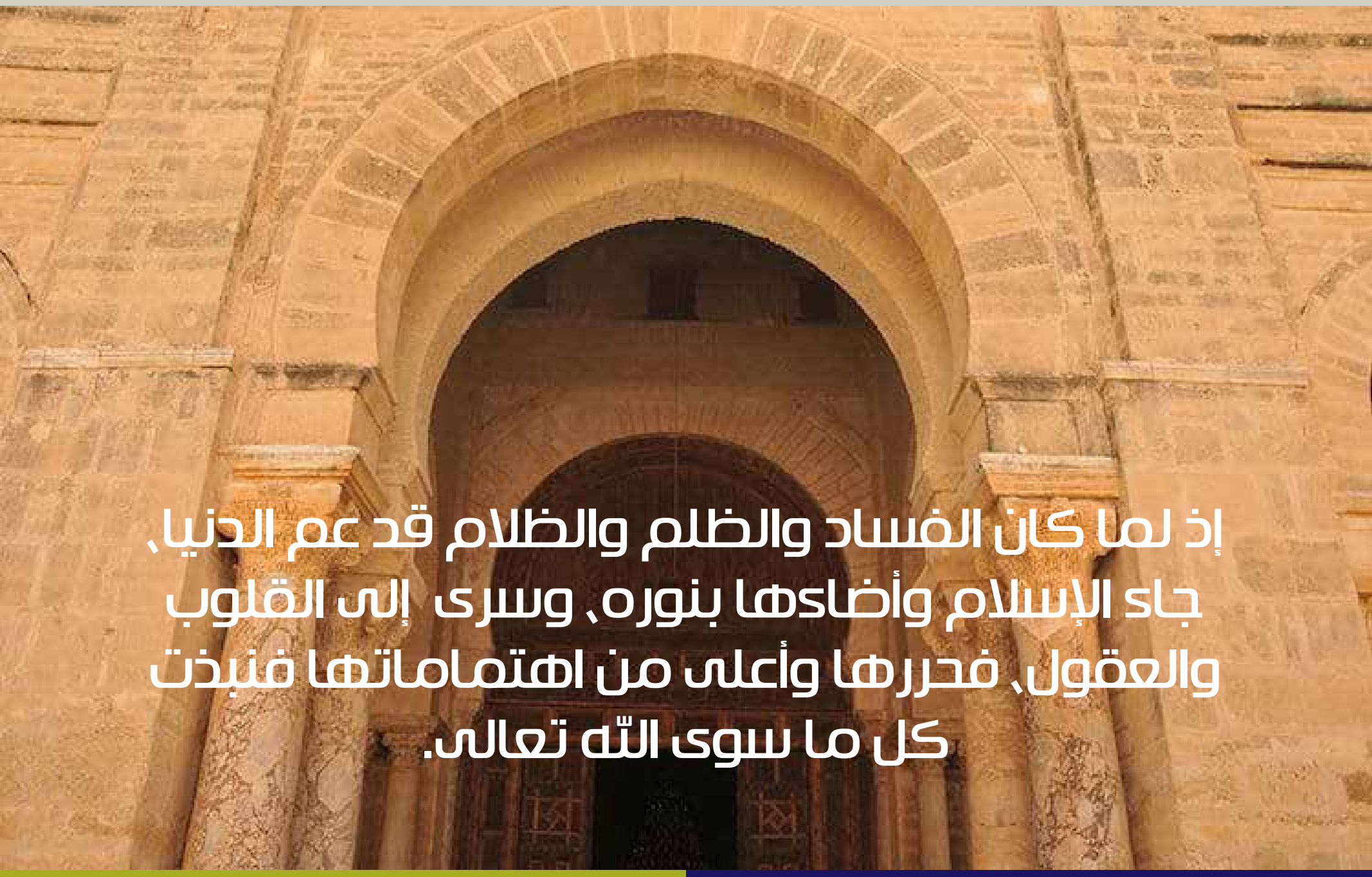

ومن أجل هذه الغاية، ولهذا الهدف السامي، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ دين الله في هذا العالم، وينشره في الأرض، ويجاهد في سبيله حق جهاده، وفي سبيله بذل الصحابة رضوان الله عليهم، والصالحون من المسلمين من بعدهم دماءهم وأموالهم لإيصاله إلى أنحاء المعمورة، ولقي المسلمون ما لقوا من العذاب، وقاسوا ما قاسوا من الأهوال من أجل المحافظة عليه في نفوسهم ونفوس أبنائهم، وشواهد ذلك كثيرة، منها على سبيل المثال: في الصين وجدت قرى حصرت نفسها في قمم الجبال، يعيش أهلها على شظف العيش حفاظاً على دينهم. وفي بعض الجهات الإسلامية الموجودة على سطح هضبة التبت، بين باكستان وبلوشستان والصين، هناك قرى أنشئت في قمم الجبال من أجل أن تحافظ على دينها فقط، وهم يقولون: نعيش في شظف من العيش من أجل أن نحافظ على ديننا. وحورب الإسلام في روسيا حرباً لا هوادة فيها، ولا يمكن لعقل أن يتصور مداها ومع ذلك بقي الإسلام فلم يقض عليه.

ولقد رأيت بعيني، وسمعت بأذني في روسيا ـ حين زرتها للمشاركة في مؤتمر الإعجاز العلمي الذي طالما تحدثت عنه ـ في هذا المؤتمر الذي عقدناه في معهد جورباتشوف الذي كان قبل ذلك معهداً لتخريج الكوادر الإلحادية، وكان يصدر الإلحاد إلى الأرض، ولا يوجد شيوعي في العالم إلا استقى من هذا المكان فكرة الإلحاد، يقول رئيس هذا المعهد: من هنا كنا نصدر إلى الدنيا: لا إلـه، فجئتم لتثبتوا لنا أن:لا إلـه إلا الله بمنطق العلم.

في هذا المعهد، عقدنا مؤتمراً للإعجاز العلمي، وأسلم أثناء المؤتمر سبعة من كبار علماء روسيا، بمجرد انقشاع شبهات الإلحاد، فخرج المسلمون من تحت الأرض، ومن وسط اللهب، وهم يقولون: (لا إله إلا الله، نحن مسلمون- لم ينتزع الإيمان من قلوبنا).

كل ذلك وغيره من الشواهد الكثيرة يدل على أن الإسلام دين الله الذي تجاوبت معه الفطرة، وأنه لا يمكن لأحد مهما بلغت قوته وسطوته أن يزيل تلك الهداية من قلوب الناس وفطرهم. إنه إعجاز الهداية، التي إذا خالطت قلباً بقيت فيه، وتشبثت به. يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفوَٰهِهِم وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَو كَرِهَ ٱلكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الصف]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَموَٰلَهُم لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيهِم حَسرَةٗ ثُمَّ يُغلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

إن من أعظم شواهد وصدق هذا الدين أنه دين الفطرة، وأنه ما دخل الإسلام أرضاً وخرج منها، بل استوطنها، وعاش فيها وأصبح جزءاً من كيانها، إلا الأندلس فإنها البلد الوحيد الذي خرج منه المسلمون لحكمة أرادها الله وعبرة لمن يريد أن يعتبر، وقد خرجوا لسببين اثنين وهما داء الأمم: إنهما الخلاف على الزعامة، والحرص والترف، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وفي إسبانيا وقد أقيمت محاكم التفتيش المشهورة من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين. ومع ذلك لا تزال شواهد بقاء حضارة الإسلام والمسلمين قائمة حتى يومنا هذا، تشهد أن الإسلام دين العلم.

رابعاً: الإعجاز التشريعي

إن النبي الأمي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء بتشريع وسط بين الأنظمة الوضعية المعاصرة، فقد جاء بتشريع أوجب فيه كفاية الفقير حتى يصل إلى أول مراتب الغنى، بتأمين الحاجات الضرورية والحاجية لا التحسينية الكمالية.

يقول الإمام النووي متحدثاً عن المقدار المصروف من الزكاة إلى الفقير والمسكين: ".. يعطيان ما يخرجهما من الحاجة إلى الغنى وهو ما تحصل به الكفاية على الدوام، وهذا نص للشافعي. واستدلوا له بحديث قبيصة" [1].

ففي صحيح مسلم: (.. ورجل أصابته فاقة .. حتى يصيب قواماً من عيش ..) [2].

قال النووي: "المعتبر من قولنا يقع موقعاً من كفايته: المطعم والملبس والمسكن، وسائر ما لا بد له منه، على ما يليق بحاله، بغير إسراف ولا تقتير، لنفس الشخص، ولمن هو في نفقته" [3].

(١) المجموع شرح المهذب ١٩٣/٦، إدارة الطباعة المنيرية.
(٢) صحيح مسلم رقم ١٠٤٤.
(٣) المجموع شرح المهذب ١٩١/٦.

وقال ابن رشد: " كم يجب لهم: ... وقال الليث: يعطى ما يبتاع به خادماً إذا كان ذا عيال، والزكاة كثيرة .. وأكثرهم مجمعون .. - يعطى حتى يصل - إلى أول مراتب الغنى" [١]، فإن لم تفِ الزكاة فيعطون من المال الفاضل عن المصالح العامة [٢].

فإن عجزت ميزانية بيت المال، فإن كفاية فقراء الأمة مسلمين أو غير مسلمين تجب في أموال الأغنياء. يقول إمام الحرمين الجويني: "أجمع المسلمون أجمعون على أنه إذا اتفق في الزمان فقراء مملقون .. تعين على أهل الغنى واليسار أن يسعوا في كفايتهم" [٣].

وذكر ابن حزم أن الأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، وسأكتفي بذكر واحد منها فقد قال الله تعالى:

﴿لَيسَ ٱلبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُم قِبَلَ ٱلمَشرِقِ وَٱلمَغرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلبِرَّ مَن ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱليَومِ ٱلأٓخِرِ وَٱلمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۧنَ وَءَاتَى ٱلمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلقُربَىٰ وَٱليَتَٰمَىٰ وَٱلمَسَٰكِينَ وَٱبنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾[البقرة:١٧٧]

قال المفسر القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ استدل به من قال: (إن في المال حقاً سوى الزكاة) [٤].. قلت: والحديث وإن كان فيه مقال فقد دل على صحته معنى ما في الآية نفسها، من قوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فذكر الزكاة ..، وذلك دليل على أن المراد بقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ ليس الزكاة المفروضة فإن ذلك يكون تكرارا... [٥].

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٢٧٧/١ - ٢٧٨، الطبعة الرابعة، دار المعرفة، ١٩٧.
(٢) أنظر: مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٥٧٥/٢٨ - ٥٧٦.
(٣) غياث الأمم في التياث الظلم ص ٢٥٩ مطابع الدوحة ١٤٠٠.
(٤) أخرجه الدارقطني عن فاطمة بن قيس قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن في المال حقاً سوى الزكاة) ثم تلا هذه الآية: (ليس البر أن تولوا وجوهكم...) وأخرجه ابن ماجه في سننه والترمذي في جامعة وقال: (هذا الحديث ليس إسناده بذاك، وأبو حمزه ميمون الأعور يضعف. وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي هذا الحديث قوله، وهو أصح).
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٤١/١٢، ٢٤٢ دار عالم الكتب ١٤٢٣ - ٢٠٠٣.

ويتجلى الإعجاز التشريعي للقرآن الكريم عندما أوجب قضاء الدين عن المدين الفقير من بيت مال المصالح العامة ـ إن كانت الدولة غنية[1] - وهو تشريع لم تعرفه التشريعات الوضعية في العالم قاطبة إلى اليوم، فقد قال الله تعالى:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَولَىٰ بِٱلمُؤمِنِينَ مِن أَنفُسِهِم وَأَزوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُم﴾ [الأحزاب:٦].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم عندما فتح الله الفتوح عليه: (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي من المؤمنين، فترك ديناً فعلي قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته)[2] وفي لفظ من طريق آخر عنه في صحيح البخاري (... ولم يترك له وفاءً، فعلينا قضاؤه..)[3] وهو في صحيح مسلم وغيره من طريق جعفر بن محمد عن أبيه، عن جابر (... من ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ)[4]. قال أبو عبيد: "فإذا رأى لهم حقاً بعد الموت، فهو في الحياة أحرى أن يرى"[5].

(١) أنظر: السراج المنير شرح الجامع الصغير ٥٠٦/١.
(٢) صحيح البخاري (٥٣٧١) صحيح مسلم (١٦١٩).
(٣) صحيح البخاري (٦٧٣١).
(٤) صحيح مسلم (٨٦٧) وأبو داود (٢٩٥٤) وأحمد (٣٣٧/٣) وغيرهم.
(٥) الأموال رقم ٥٤٣.

قال العلامة محمد بن إبراهيم الشهير بالعزيزي: "قوله (فإليّ وعليّ): أي فأمر كفاية عياله إليّ، ووفاء دينه عليّ" [1] ، قال القرطبي: "قال بعض أهل العلم: يجب على الإمام أن يقضي من بيت المال دين الفقراء، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث صرح بوجوب ذلك عليه حيث قال: (فعلي قضاؤه)" [2].

كما أن الإسلام عرف الملكية العامة للثروات الطبيعية كالمعادن والبترول، ولو وجدت بأرض مملوكة في القول المشهور عند المالكية، والبترول عند الحنابلة، وملكية الأمة لأراضي البلاد المفتوحة عنوة، فقد وقف الخليفة عمر رضي الله عنه أرض الشام والعراق ومصر على أجيال أمة، إلى جانب إقرار الإسلام الملكية الفردية المقيدة. بوجوب كفاية الأغنياء لبيت المال للقيام بالمصالح العامة الضرورية، وكفاية فقراء الأمة.

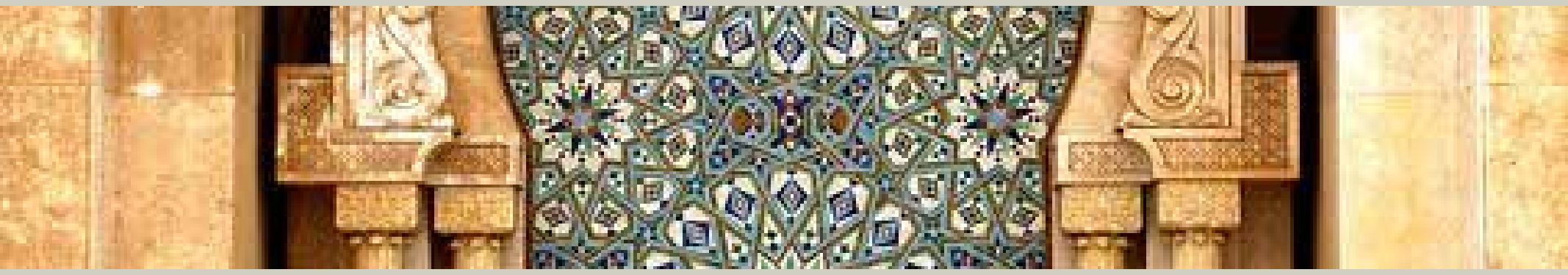

وقد ذكر أحد كبار علماء الاقتصاد الغربيين في ختام أحد المؤتمرات الاقتصادية الإسلامية التي عقدت في مدينة (بادن) في ألمانيا- وكنت أحد الحاضرين فيه، وضم مائة وعشرة من علماء الاقتصاد المسلمين- ومائة وعشرين من علماء الاقتصاد الغربيين الذين جاءوا من غرب أوروبا، لمناقشة قضية الاقتصاد الإسلامي، وفي اليوم الأخير من المؤتمر، وقف رئيس فريق الاقتصاديين الغربيين، وقال: "لقد تبين لي وللفريق العامل معي أن إنقاذ العالم من مأساته الاقتصادية، موجود عندكم أنتم معشر المسلمين". وقد دعا بابا الفاتيكان مؤخراً إلى الأخذ بنظام المعاملات الإسلامي لإنقاذ بنوك العالم من الإفلاس.

(١) أنظر: السراج المنير شرح الجامع الصغير ٥٠٦/١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢٢/١٤ وأنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٠/١٢.

أما الإعجاز في المجال الصحي فقد قالت عضوة في مجلس العموم البريطاني أثناء جلسة لمناقشة قضية انتشار الإيدز، الذي أصبح الشغل الشاغل لكثير من الناس ـ وكان المجلس قد طلب رأيها في حل مشكلة هذا الداء العضال الذي أصبح يهدد العالم أجمع ـ فقالت: (أتريدون أن أخبركم بالحل لمرض الإيدز؟ إنه الحل السعودي) وتقصد بالحل السعودي: الحل الإسلامي، أي: إقامة الحد على مقترف هذه المعصية، فهو الذي سوف يقضي على ظاهرة الإيدز.

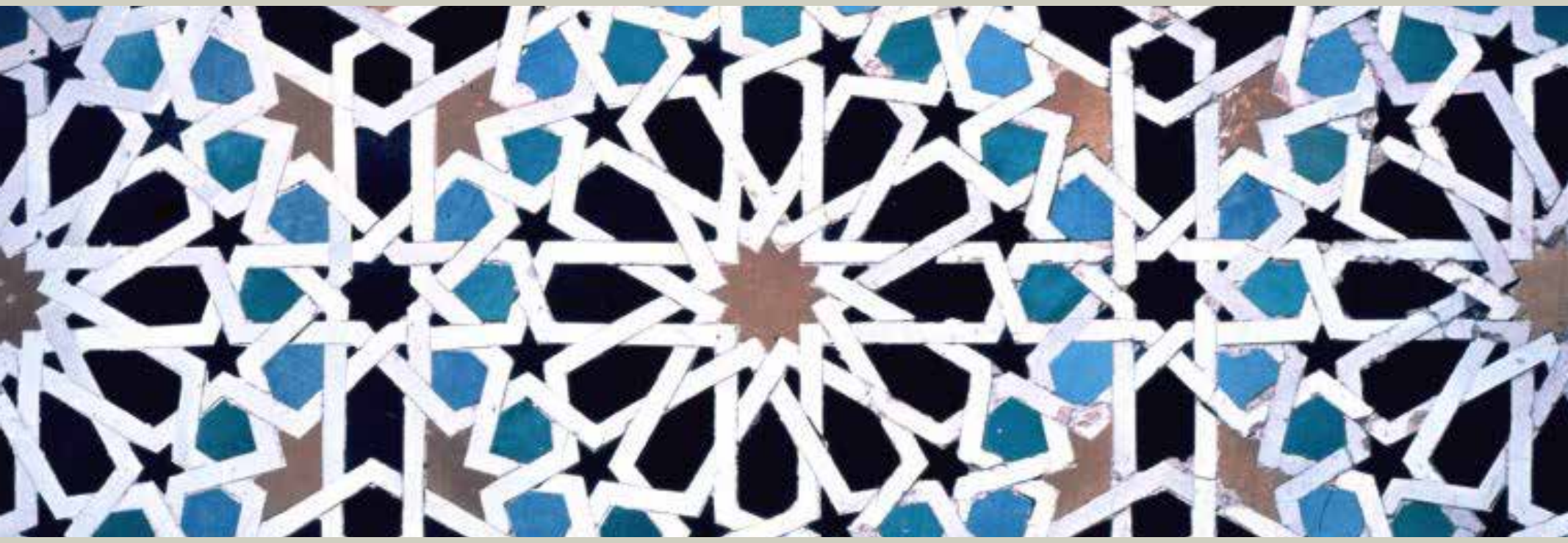

وللإعجاز التشريعي جوانب متعددة، منها:

- **الإعجاز التشريعي في مجال الجنايات**
- **الإعجاز التشريعي في مجال المعاملات**
- **الإعجاز التشريعي في مجال العلاقات الأسرية.**
- **الإعجاز التشريعي في مجال العلاقات الدولية، وقد دخلت الشريعة الإسلامية كمرجع من مراجع الأمم المتحدة.**

وليس هنا مجال بحثها، ولها مصادرها الخاصة بها، في كتب الفقه، وكتب فقه السياسة الشرعية، والكتب التي تناولت بعض الجوانب التفصيلية في بعض المجالات التي تتعلق بتنظيم الحياة الإنسانية وفقاً لتشريعات الإسلام وأحكامه.

خامساً: الإعجاز الغيبي

قال حجة الإسلام الغزالي: "النبي لا يكون نبياً حتى ينبئ عن غيب" [1]، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم إخبارات عن الغيب بلغت نحو ألف مغيبة، يقول القاضي عبد الرحمن الأيجي معدداً طرق الاستدلال على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم: "... السابع: إخباره عن الغيب فمنه ما ورد به القرآن، ومنه ما نطقت به الأحاديث المصححة، ومن بحث عن هذا الجنس وجده كثيراً" [2].

وقد ألف أبو العلاء بكر بن محمد القشيري (ت ٣٣٤هـ) كتاب "ما في القرآن من دلائل النبوة " [3]، وفي سورة الفتح عدة مغيبات صريحة واضحة منها: الوعد بفتح خيبر لأهل الحديبية خاصة لن يشاركهم فيها أحد، الوعد بفتح مكة مستقبلاً، الوعد بتحقق رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم بأداء العمرة في مكة مع وجود قريش فيها، وعد الأعراب الذين تخلفوا عن صلح الحديبية بأنهم سيشاركون في فتوحات قادمة لقوم أولي بأس شديد، الوعد بفتح الإسلام لمشارق الأرض ومغاربها ... وتحقق كل ذلك.

(١) أنظر: الفتاوي الكبرى - شرح العقيدة الإصبهانية ٨٨/٥ط أولى - دار القلم بيروت ١٤٠٧ - ١٩٨٧.
(٢) المواقف في علم الكلام ص ٣٥٦.
(٣) أنظر: الفتح المبين في طبقات الأصوليين ١٩١/٢ - ١٩٢ ط ثانية.

وقد ألف الندوي كتاب "نبوءات الرسول صلى الله عليه وسلم ما تحقق منها وما يتحقق" وهي رسالة ماجستير ذكر فيها ١٨٦ نبوة صحيحة، ما عدا ست منها أسانيدها ضعيفة قال: ذكرتها لأنها تحققت.

قال ابن خلدون عن الفتوحات الإسلامية: "... كان استيلاؤهم على فارس والروم لثلاث أو أربع من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فهو من معجزات نبينا صلوات الله عليه ... والمعجزات لا يقاس عليها الأمور العادية" [١].

وقد ألف العلماء كتباً بعنوان (دلائل النبوة) أحسنها وأشملها (دلائل النبوة) للحافظ البيهقي ـ المتوفي سنة ٤٥٨هـ، ويقع في سبع مجلدات، وألف سعيد سالم باشنفر كتاب بعنوان (دلائل النبوة) اشتمل على ألف وأربعمائة مغيبة عزاها إلى مصادرها، وخرج بعضها.

(١) أنظر: مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٧ ط أولى دار الكتب العالمية - بيروت ١٤١٣ - ١٩٩٣.

سادساً: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

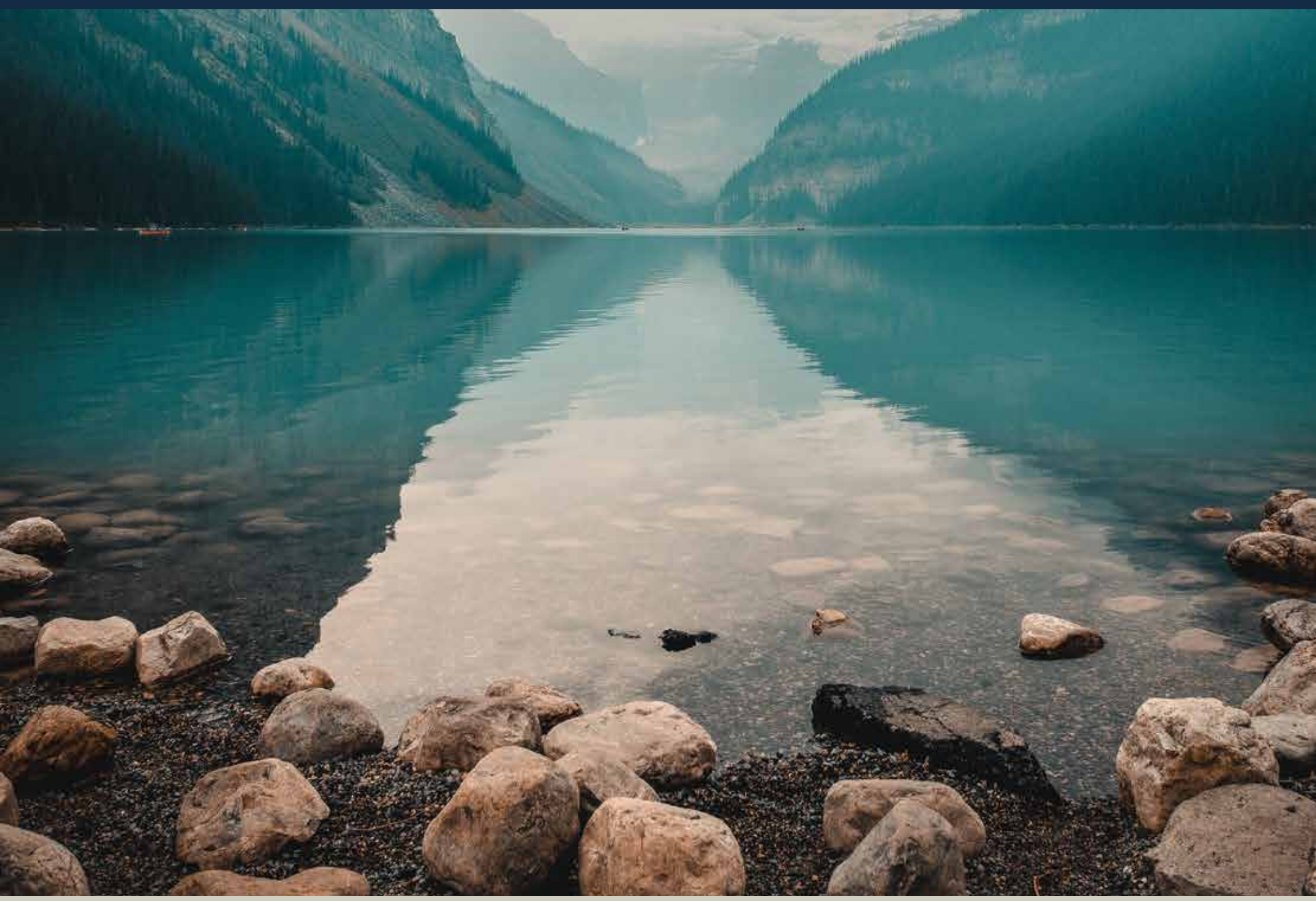

ذكرت في كتابي ((هذا محمد رسول الله وهذه براهين رسالته)) مائة حقيقة علمية كونية معاصرة، وقد ذكرت أدلة هذه الحقائق في القرآن والسنة ـ سواء أكانت دلالتها يقينية أو احتمالية راجحة ـ بل لو وجد سند ضعيف في بعض روايات السنة، فإنها مع هذا (الاستقراء التام) تفيد بمجموعها القطع على وقوع المعجزة العلمية، وقد ألف المعاصرون في ذلك الكتب.

وبما أن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة هو محور رئيس في إقامة الحجج والبراهين على البشرية -لا سيما في عصرنا هذا- فسوف نستعرض مشاهد منه في صفحات قادمة من هذا الكتاب.

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ

البرهان الخامس

برهان إنزال الكتب

كل نبي أرسله الله عز وجل أعطاه شيئين مهمين، الأول: الكتاب، والثاني: المعجزة الدالة على صدقه، وهذه الكتب تضمنت الشرائع والآداب والأحكام والنظم، وكيفية تسيير الحياة، وكيف يجب أن يسير الناس على هدى الله الذي فيه الدلالة على مصالحهم في الدنيا والآخرة؟!

لأن الله الذي خلقهم هو العالم بما يصلح أحوالهم، وعقولهم لا تحيط بتفاصيل مصالحهم، كما أنها لا تنفك عن أهوائها وشهواتها، ولابد لنا أن نؤمن ونعتقد بأن الله سبحانه هو الذي قد أحاط بكل شيء علماً، فهو يعلم ظواهر الأشياء وبواطنها، أسرارها وخفاياها، وليس ذلك بالمستغرب، فهو الخالق العليم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، ولذلك فإن شرعه وأمره وتوجيهه للبشرية يتطابق مع سنة الله في فطرة الإنسان في احتياجاته الجسدية والروحية والنفسية والاجتماعية، والإنسان مهما بلغ علمه غير قادر على الإحاطة بتفاصيل مصالحه، وإن كان قد يعرفها على الإجمال، فضلاً عن معرفته للغيب حتى يحقق مصلحته ومبتغاه.

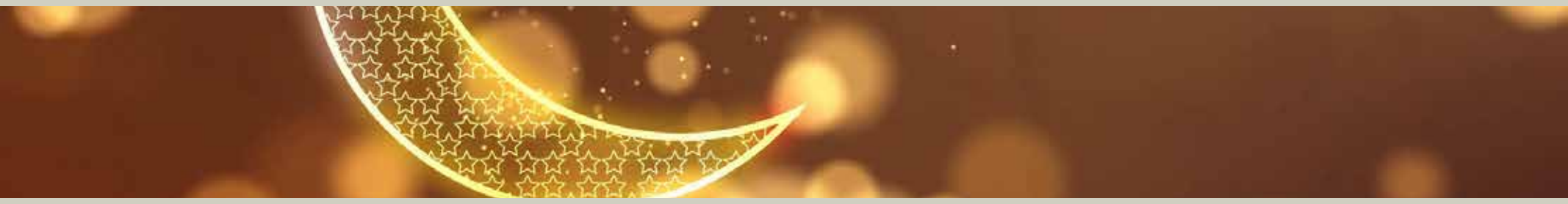

قال الله تعالى: ﴿وَلَو كُنتُ أَعلَمُ ٱلغَيبَ لَٱستَكثَرتُ مِنَ ٱلخَيرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ومن ثم فلا يمكنه أن يعتمد على نتاج عقله المجرد فقد قال فقهاء الإسلام: (العقل ليس بشارع) لأن العقل قد يصل إلى اليقين في العلوم الطبيعية، من فيزياء وكيمياء وعلم الأحياء، يقول (جيمس جينز): "قبل أن تظهر نظرية الكم، كان مبدأ اتساق الطبيعة القائل: بأن الأسباب المتماثلة تحدث نتائج متماثلة ـ مقبولاً على أنه حقيقة علمية لا نزاع عليها، وبمجرد إقرار نظرية ذرية الإشعاع أصبح من الواجب رفض هذا المبدأ " [1]، .. وهكذا نجد أن ذرية الإشعاع تحطم مبدأ اتساق الطبيعة، وأن ظواهر الطبيعة لم تعد محكومة بقانون سببي" [2]

(١) الفيزياء والفلسفة ص ١٩٠.
(٢) الفيزياء والفلسفة ص ١٩٢.

ولكن لا يقين في علم الاجتماع الإنساني، لأن المصلحة لها جوانب نفع وجوانب ضرر، ومن هنا قال القائل:

قل لمن يدعي في العلم معرفة

حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

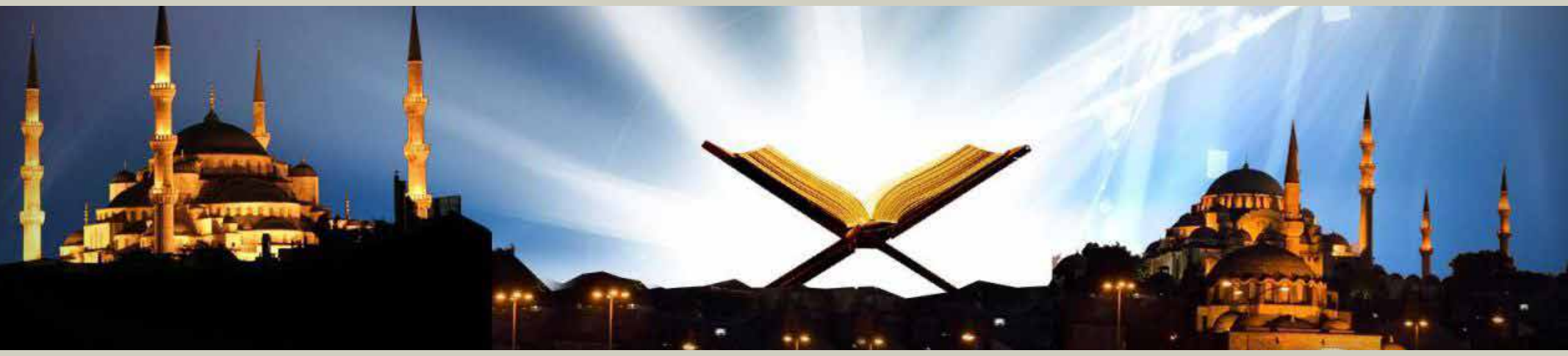

ورحم الله عمر بن الخطاب الذي فرض نفقة للأطفال بعد الفطام، توفيراً لمصلحة بيت المال، فصارت الأمهات تفطم أولادهن مبكراً. فقال رضي الله عنه: (يا ويح عمر كم احتمل وزراً وهو لا يعلم) فعاد وفرض للمنفوس مئة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم، فإذا بلغ زاده[1].

ولذلك لا بد من الاعتماد على وحي الله تعالى الذي أوحاه قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعلَمُونَ ٦ يَعلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلحَيَوٰةِ ٱلدُّنيَاوَهُم عَنِ ٱلأٓخِرَةِ هُم غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الروم][2].

ولذلك جاءنا الله بالمنهج الكامل المحيط الذي يحقق مصالح الإنسان عن طريق الرسالات والكتب، وهذه الكتب تضمنت مصالح العباد في دنياهم وأخراهم، ووضعت الضوابط، وجاءت بالقواعد التي تحمي عقله ووجدانه، وتنظم حياته، وسائر شئونه على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والأمة والعلاقات الإنسانية كاملة: سلماً وحرباً وصلحاً وتعاوناً وكل شأن من شئون الحياة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعلَمُ وَأَنتُم لَا تَعلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

(١) الأحكام السلطانية - لأبي يعلي ص ٢٢٣.
(٢) أنظر تفسيرها في أضواء البيان ٤٧٧/٦.

وفي مقدمة هذه الأمور:

لا بد أن يُبنى التشريع على الإيمان بأصول الإيمان الستة التي تكرر ذكرها في آيات كثيرة من القرآن الكريم: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. وهي في أكثرها تعني الإيمان بالغيب، ليشعر المرء بأن عليه في كل تصرف رقيب وحسيب وبذلك يتقن عمله.

ثم العمل على تحقيق أركان الإسلام العملية الخمسة المتمثلة في: شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً، وغاية هذه الأركان تربية النفس على بذل المال، والخلاص من الشح والبخل، ليتم القضاء على الفقر في الأمة.

ثم لابد من اعتقاد العصمة لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنهما المصدران الأساسيان الوحيدان النقيان للاعتقاد والتشريع. ثم الإقرار بعدالة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم نقلوا الدين والتشريع إلينا. والعمل بما وجب القيام به من الدين والنصوص الشرعية في الكتاب والسنة مما كانت دلالته قطعية أو إحتمالية راجحة. والبعد عن ما علم تحريمه مما كانت دلالته قطعية أو إحتمالية راجحة. والأخذ بسائر القيم والأخلاق والنظم المصلحية. وكل ذلك انتظمته كتب الله، ولكن أعلاها وأكملها الكتاب المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ القرآن الكريم والسنة المطهرة فيما صح منها.

محمد رسول الله

البرهان السادس

الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

تنبع أهمية الإعجاز العلمي من عدة جوانب، هي

الجانب الأول: أننا نعيش في زمن يسميه الكل: زمن العلم. فما من دارس، أو صاحب اختصاص من الاختصاصات، سواء في الطب أو الهندسة أو العلوم الشرعية أو الإنسانية إلا وهو يقول: " نحن في زمن العلم "، بحيث أصبح الشغل الشاغل للصغير والكبير، والمعيار لأي عمل أو نظرية. ولذا كان لا بد أن يكون إعجازنا في هذا الزمن إعجازاً علمياً.

الجانب الثاني: الإعجاز العلمي خطاب إلى العقول في أرقى صورها، وأعلى درجات إدراكها.

الجانب الثالث: الخطاب في الإعجاز العلمي موجه نحو العلماء القادرين على فهم المراد منه، والمدركون لأهميته وقيمته العلمية وقد أخذت الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة على عاتقها القيام بأداء هذه الرسالة إفادة منها وتبياناً لها ووضع ضوابط ومعايير لمن يعمل فيها.

مشاهد من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

مشاهد الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية كثيرة، وقد أثبتت التجارب العلمية والأبحاث الصادرة عن مراكز البحث العلمي المتخصص أنها حقائق علمية لا يمكن لمنصف تجاهلها وإنكارها، بحيث وقف أمامها أكابر علماء الغرب وقفة إجلال وتصديق وانبهار.

وقد قال لي الدكتور مارشال جونسون ـ وهو من كبار العلماء في علم الأجنة ـ ذات مرة، بأنه لو تم تقديم الحقائق التي تم التوصل إليها في بلاد الغرب، وفيها الدلالة على صدق النبي الذي يؤمنون به لقامت الدنيا ولم تقعد، وأستغرب منكم، كيف تسكتون والدلائل على صدق نبيكم بين أيديكم واضحة جلية [1].

وعليه فإننا سنستعرض بعض مشاهد الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في الصفحات القادمة ضمن صور من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تنتضمها موضوعات متنوعة.

(١) جانب من حوار بيني وبينه على هامش المؤتمر السعودي الطبي الثامن.

الثقوب السوداء

قال تعالى:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾ [التكوير]

الدلالة العلمية

تمثل الثقوب السوداء Black Holes مرحلة الشيخوخة في حياة نجوم عملاقة أكبر كتلة من الشمس بأكثر من خمس مرات، ، ،
وتتميز الثقوب السوداء بكثافة كبيرة وجاذبية بالغة الشدة بحيث لا يفلت من أسرها شيء حتى الضوء نفسه البالغ السرعة (حوالي ٣٠٠ ألف كم/ثانية)، ومن هنا كانت تسميتها التي تعكس وجود مناطق كالثقوب في صفحة السماء اختفى فيها كل شيء فبدت فجوات، وهذه النجوم العملاقة المختفية أو المتوارية تكنس في طريقها كل شيء يقاربها حتى النجوم ولذا سميت بالمكانس العملاقة Giant Vacuum Cleaners وقد دلت عليها الحسابات النظرية التي قام بها كارل شفارز تشايلد Karl Schwarzschild عام ١٩١٦م وروبرت أوبنهاير Robert Oppenheimer عام ١٩٣٤م ومنذ عام ١٩٧١م تزايد احتمال وجودها تأكيداً، ويعتقد العلماء بأن مركز مجرتنا (درب التبانة) على سبيل المثال عبارة عن ثقب أسود.

وجه الإعجاز

نفي القَسَم في أسلوب القرآن الكريم تأكيد له وكأنه تعالى يقول: لا حاجة للقسم مع تلك الحجة البينة، وقد ورد القسم في معرض الاستدلال على أن القرآن وحي من عند الله، قال تعالى:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾ [التكوير]

وتنعكس عظمة القسم وأهميته في الاستدلال على المقسوم به وهو هنا مذكور بصفات تلتقي تماماً مع صفات ما يسمى بالثقوب السوداء، فهي في الأصل نجوم تجري في مداراتها فيصدق عليها الوصف باللفظ (جَوَار)، وأما اللفظ (خنس) فيتطابق معها بكل معانيه في اللغة ومنها: التواري والاحتجاب والاختفاء، والتراجع والاندثار بعد ظهور وازدهار، وهي بالفعل نجوم عملاقة هوت في نهاية أعمارها وانكمشت مادتها واستترت ولا يظهر منها أية ضوء، والسبب شدة جاذبيتها التي تجعلها تكنس كل شيء يجاورها في طريقها وتبتلعه فتزداد كتلة وقوة؛ وهنا يتجلى وصفها بلفظ (الكُنَّس) أو المكانس العظام.

والمعرفة بتلك الأوصاف حديثة، لذا فإن ورودها في القرآن الكريم بألفاظ تدل عليها بدقة - في معرض تأكيد الوحي به - لدليل حاسم على أنه كلام الله الخالق، فتبارك الله القائل:

﴿ إِن هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨ ﴾ [ص]

سراجا وقمرا منيرا

قال تعالى:

(تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١) [الفرقان]

الدلالة العلمية

طاقة الشمس (المفاعل النووي الكوني): تنتج نتيجة لاحتراق الهيدروجين وهو المكون الأساسي لها وتحوله إلى هليوم في باطنها،، حيث الكثافة والضغط العالي والحرارة التى تصل إلى ١٥ مليون درجة، حيث يؤدي هذا إلى حدوث تفاعل نووي واندماج أربع ذرات هيدروجين لإعطاء ذرة هليوم واحدة ويكون فرق الكتلة ما بين المواد الداخلة فى التفاعل والناتجة من التفاعل يشع على هيئه طاقة كهرومغناطيسية تشع من سطح الشمس أشعة قصيرة الموجة تصاحبها أشعة مرئية وأشعة تحت الحمراء وأشعة فوق بنفسجية وهذا يعنى أن الشمس تستمد طاقتها من باطنها عبر اندماج نووي طبيعي تحت ظروف عاليه الضغط والكثافة والحرارة وكأنها مفاعل نووي عملاق مسخر ليمد الأرض بالنور والدفء والطاقة.

وتعتبر الشمس نجماً، وهي جسم سماوي متلألئ يشع الطاقة ذاتياً، بينما القمر كوكب، وهو جسم سماوي ثابت الإضاءة يعكس الأشعة التي يتلقاها من النجوم والشموس وينطبق هذا على التوابع الطبيعية للكواكب (الأقمار).

وجه الإعجاز

أشارت نصوص القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام إلى التفريق بين النجم والكوكب ممثلاً في الشمس والقمر،،
وهو ما توصل إليه علماء الفلك الحديث بعد اكتشاف المناظير وإجراء الدراسات الفوتومتريه (الضوئية) والطيفية على النجوم والكواكب خلال القرون القليلة الماضية. فالنجم ما هو إلا جسم سماوي متلألئ يشع الطاقة ذاتياً، بينما الكوكب جسم سماوي ثابت الإضاءة يعكس الأشعة التي يتلقاها من النجوم والشموس وينطبق هذا على التوابع الطبيعية للكواكب (الأقمار).

فالشمس تعد مفاعلاً نووياً عملاقاً يسبح في الفضاء بسرعة كبيرة وله ضوء وطاقة وحرارة ذات أشكال شتى ومتغيرة في كمها وكيفها. وهي ليست قرصاً مضيئاً ثابت الضياء، بل هو سراج وهّاج ﴿وَجَعَلنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ١٣﴾ [عم].
أما القمر فهو كوكب يعكس ضوء الشمس فيضيء ليل الأرض نوراً، وهو ما سبق القرآن الكريم في تقريره في هاتين الآيتين الكريمتين. فمن أخبر محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الحقائق؟ إنه الله جلَّ في علاه .. ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلأَلبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم]

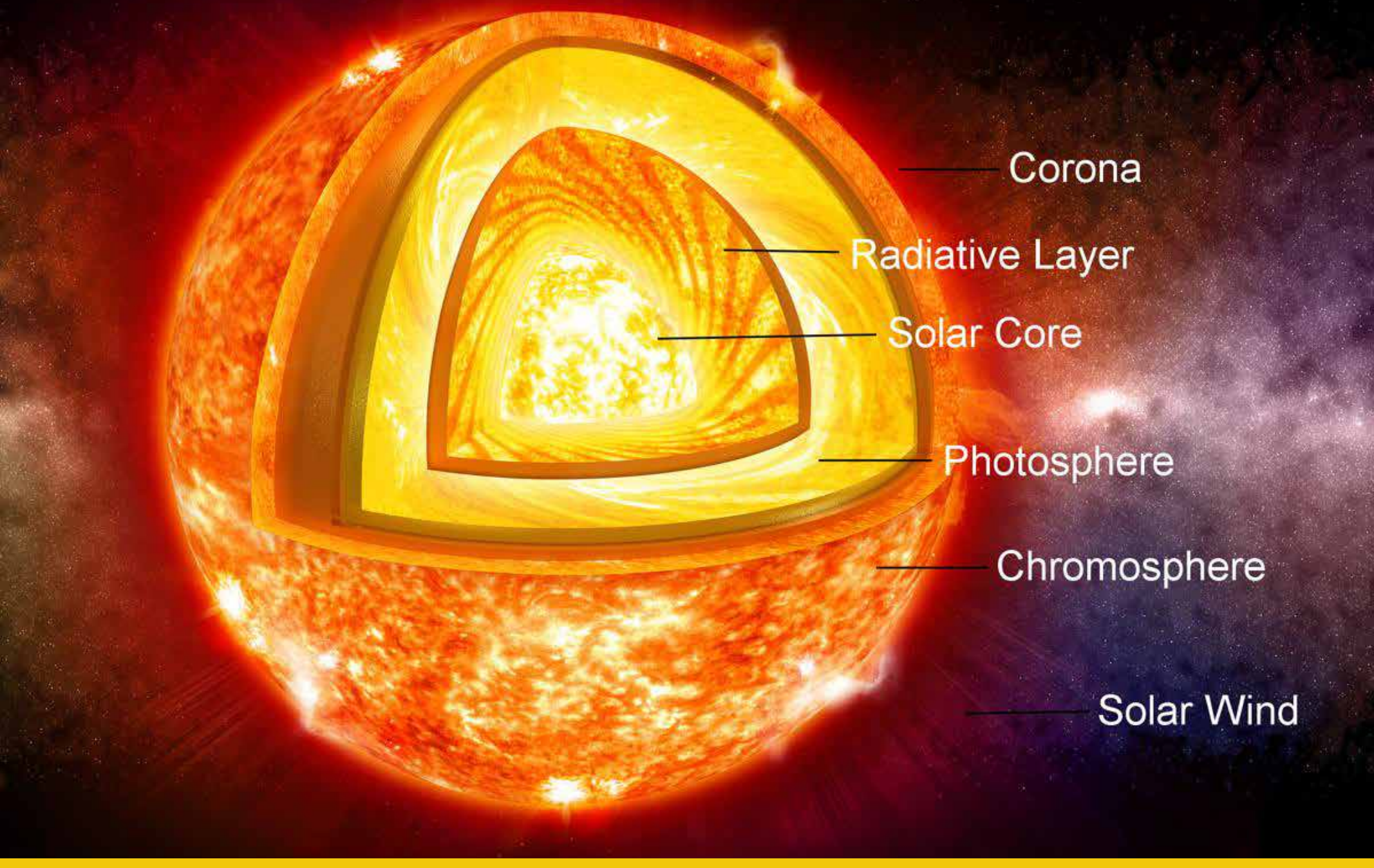

رسم توضيحي للب الشمس الداخلي

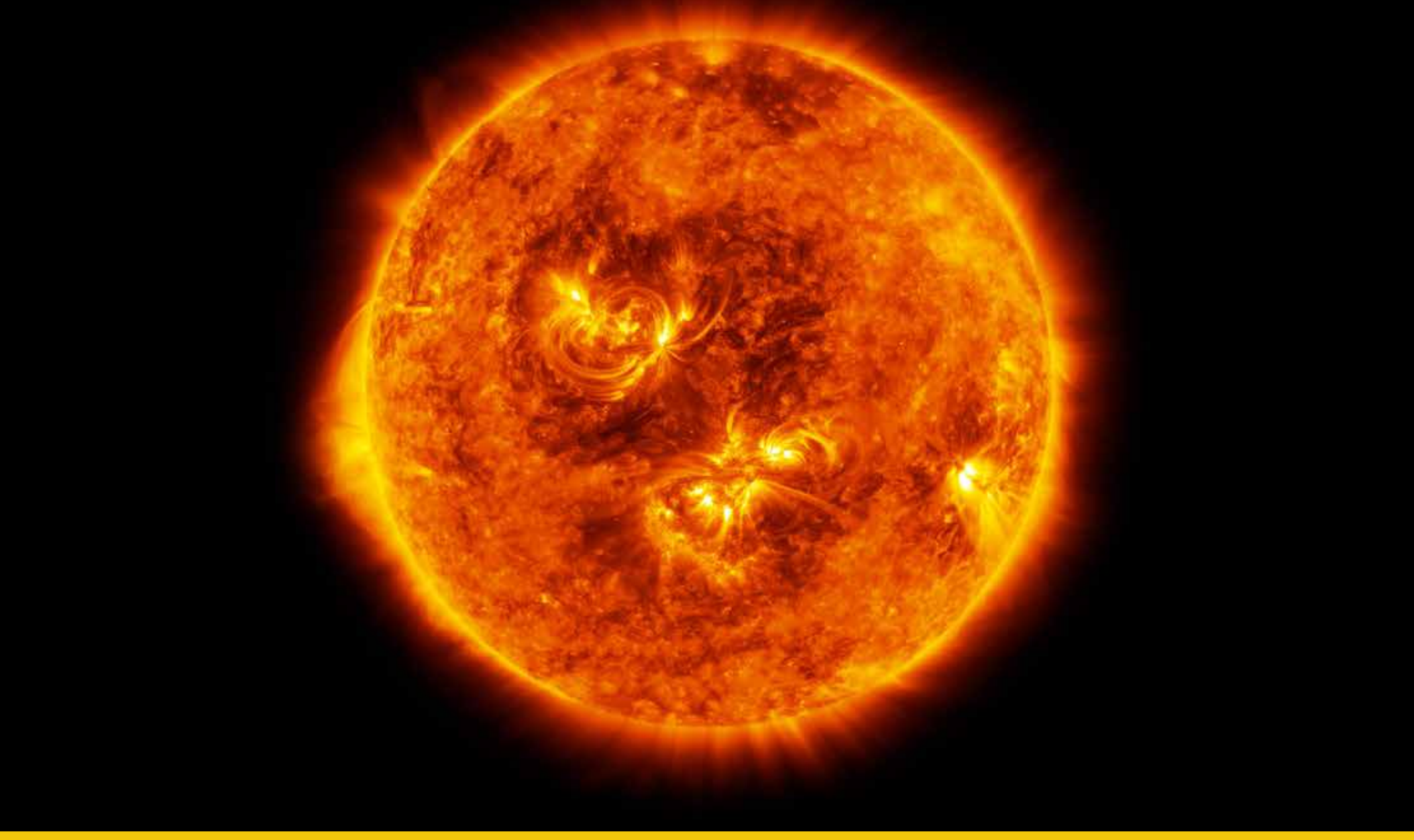

الشمس سراجاً وهاجاً جسم يشع طاقة ذاتياً

الضغط الجوي

قال تعالى:

(فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهدِيَهُ يَشرَح صَدرَهُ لِلإِسلَٰمِ وَمَن يُرِد أَن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضَيِّقًا حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤمِنُونَ ١٢٥) (الفرقان)

الدلالة العلمية

كانت المعرفة بتركيب الجو خافية إلى أن أثبت باسكال Pascal عام ١٦٤٨ أن ضغط الهواء يقل مع الارتفاع عن مستوى سطح البحر، وتبين لاحقاً أن الهواء أكثر تركيزاً في الطبقات السفلى من الغلاف الهوائي، فتتجمع خمسون بالمائة (٥٠ ٪) من كتلة غازات الجو ما بين سطح الأرض وارتفاع عشرين ألف (٢٠٠٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، وتسعون بالمائة (٩٠ ٪) ما بين سطح الأرض وارتفاع خمسين ألف (٥٠٠٠٠) قدم عن سطح الأرض، ولذلك تتناقص الكثافة Density مع الارتفاع بشكل عام. و يبلغ تخلخل الهواء أقصاه في الطبقات العليا قبل أن ينعدم في الفضاء. ووجود الإنسان على ارتفاع دون عشرة آلاف (١٠٠٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر لا يسبب له مشكلة جدية، وقد يستطيع الجهاز التنفسي أن يتأقلم على ارتفاع ما بين عشرة آلاف وخمسة وعشرين ألف (١٠٠٠٠ - ٢٥٠٠٠) قدم.

وكلما ارتفع الإنسان في السماء انخفض الضغط الجوي وقلّت كمية الأكسجين مما يتسبب في حدوث ضيق في الصدر وصعوبة بالغة في التنفس يتزايد معها معدل التنفس نتيجة لحاجة الأنسجة الملحة للأكسجين، فإذا لم يتوفر وتزايد طلب خلايا الجسم له لتقوم بوظائفها عندما يزداد ارتفاعه إلى أعلى يصاب بحالة حرج بالغة يضطرب فيها تنفسه بسبب النقص الحاد في الأوكسجين Oxygen Starvation ويصاب الإنسان عندئذ بفشل الجهاز التنفسي Respiratory System ويهلك.

وجه الإعجاز

من المسلم به أن الإنسان في عهد الوحي بالقرآن لم يعرف بقضية التركيب الغازي للغلاف الجوي في طبقاته المختلفة وبالتالي حالة انخفاض الضغط في الطبقات العليا منه وانخفاض معدل تركيز غاز الأوكسجين الضروري للحياة كلما ارتفع الإنسان في الفضاء؛ وبالتالي لا يعرف أثر ذلك على التنفس وبقاء الحياة، بحيث ينتهي إلى فشل الجهاز التنفسي والموت، بل على العكس كان الناس يظنون أنه كلما ارتقى الإنسان إلى مكان مرتفع كلما انشرح صدره، وازداد متعة بالنسيم العليل.

تشير الآية الكريمة بكل وضوح إلى حقيقتين كشف عنهما العلم حديثاً؛

الأولى: هي ضيق الصدر وصعوبة التنفس، كلما ازداد الإنسان صعوداً في طبقات الجو، والذي تبين أنه يحدث بسبب نقص الأوكسجين وهبوط ضغط الهواء الجوي.

والثانية: هي حالة الحرج التي تسبق الموت اختناقاً حينما يجاوز ارتفاعه في طبقات الجو ثلاثين ألف قدم وذلك بسبب الهبوط الشديد في الضغط الجوي والنقص الحاد في الأوكسجين اللازم للحياة إلى أن ينعدم الأوكسجين الداخل للرئتين فيصاب الإنسان بالموت والهلاك.

والسماء ذات الرجع

قال تعالى:

(وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجعِ ﴿١١﴾ [الطارق]

الدلالة العلمية

كشف لنا علم الأرصاد الحديث عن بعض أسرار وحقائق الغلاف الجوي (سماء الأرض) وما يقدمه من منافع وحماية للأرض ونذكر منها:

01 يقوم الغلاف الجوي بإرجاع الماء المتبخر على هيئة أمطار.

02 يُرجِع الغلاف الجوي كثيراً من النيازك ويردها إلى الفضاء الخارجي.

03 يردُّ الغلاف الجوي الإشعاعات القاتلة للأحياء ويدفعها بعيداً عن الأرض.

04 يعكس الغلاف الجوي موجات الراديو القصيرة والمتوسطة إلى الأرض، ولذا يمكن اعتبار الجو أشبه بمرآة عاكسة للأشعة والموجات الكهرومغناطيسية، فهو يعكس أو يُرجع ما يُبَث إليه من الأمواج اللاسلكية والتلفزيونية بعد انعكاسها على الطبقات العليا الأيونية (الأيونوسفير) وهذا هو أساس عمل أجهزة البث الإذاعي والتلفزيوني عبر أرجاء الكرة الأرضية.

05 الغلاف الجوي أشبه بمرآة عاكسة للحرارة فهو يعمل كدرع واقية من حرارة الشمس أثناء النهار، كما يعمل كغطاء بالليل يمسك بحرارة الأرض من التشتت، ولو اختل هذا التوازن لاستحالت الحياة على الأرض إما من شدة الحرارة نهاراً أو شدة البرودة ليلاً.

وجه الإعجاز

تشير الآية القرآنية الكريمة ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجعِ ١١﴾ [الطارق] إلى أن أهم صفة للسماء المحيطة بالأرض هي أنها ذات رجع ،،،

وقد فهم القدامى أنها تشير إلى المطر فحسب، وجاء العلم الحديث ليعمق معنى الإرجاع في وصف الجو ليشمل مظاهر عديدة لم يكن يعلمها بشر من قبل، وكلمة الرجع تأتي بمعنى الإرجاع أو الإعادة إلى ما كان منه البدء، فمعناها رد الشيء وإرجاعه في اتجاه مصدره مثل صدى الصوت، والسماء هنا تعني جو الأرض، والتعبير يفيد وجود غلاف يحيط بها يرد إليها كل نافع ويرد عنها كل ضار فتبين أن لفظة الرجع لها من الدلالات ما يفوق مجرد نزول المطر وأنه بغير تلك الصفة للجو ما استقامت على الأرض حياة، وبهذا أجمل القرآن الكريم بلفظة واحدة كل ما كشفه العلم الحديث من خصائص الجو، فتبارك الله القائل:

﴿وَقُلِ ٱلحَمدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُم ءَايَٰتِهِ فَتَعرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعمَلُونَ ٩٣﴾ [النمل] .

يتكون الغلاف الجوي من عدة
طبقات تتداخل في بعضها، وكل
طبقة من طبقات الغلاف الجوي
لها مردودها النافع على الأرض
مما ينعكس على حياة البشر

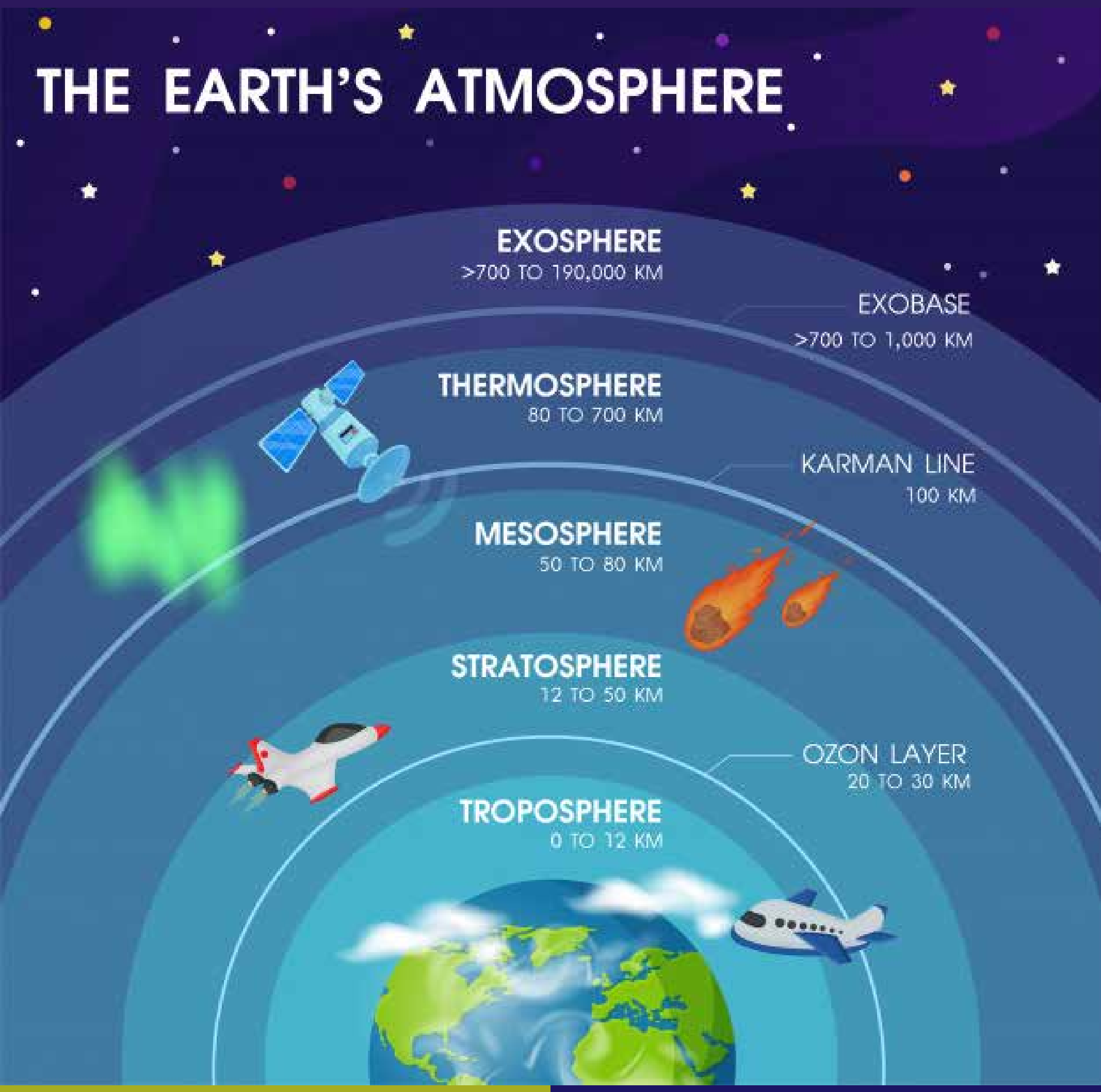

النهايات العصبية في الجلد

قال تعالى:

((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (٥٦))) [النساء].

الدلالة العلمية

كان الاعتقاد السائد قبل عصر الكشوف العلمية أن الجسم كله حساس للآلام، ولم يكن واضحا لأحد أن هناك نهايات عصبية متخصصة في الجلد لنقل الأحاسيس والألم، حتى كشف دور النهايات العصبية في الجلد وأنه العضو الأهم لاحتوائه على العدد الأكبر منها.

وقد قسم الدكتور هيد (HEAD,S CLASSIFICATION) الإحساس الجلدي إلى مجموعتين:

- إحساس دقيق (EPICRITIC) يختص بتمييز حاسة اللمس الخفيف والفرق البسيط في الحرارة.
- وإحساس أولي (PROTOPATHIC) ويختص بالألم، ودرجة الحرارة الشديدة والجلد هو الجزء الأغنى بنهايات الأعصاب الناقلة للألم والحرارة.

كما أثبت علماء التشريح أن المصاب باحتراق الجلد كامً لا لا يشعر بالألم كثيراً نتيجة لتلف النهايات العصبية الناقلة للألم، بخلاف الحروق الأقل درجة (الدرجة الثانية) حيث يكون الألم على أشده نتيجة لإثارة النهايات العصبية المكشوفة.

وجه الإعجاز

بين الله سبحانه وتعالى أن الجلد هو محل العذاب فربط جل وعلا بين الجلد والإحساس بالألم في الآية الأولى، وأنه حينما ينضج الجلد ويحترق ويفقد تركيبه ووظيفته يتلاشى الإحساس بألم العذاب فيستبَدل بجلد جديد مكتمل التركيب تام الوظيفة، تقوم فيه النهايات العصبية - المتخصصة بالإحساس بالحرارة و بآلام الحريق - بأداء دورها ومهمتها ؛ لتجعل هذا الإنسان الكافر بآيات الله تعالى يذوق عذاب الاحتراق بالنار باستمرار.

ولقد كشف العلم الحديث أن النهايات العصبية المتخصصة للإحساس بالحرارة وآلام الحريق لا توجد بكثافة إلا في الجلد، وما كان بوسع أحد من البشر قبل اختراع المجهر وتقدم علم التشريح الدقيق أن يعرف هذه الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا... وهكذا تتجلى المعجزة وتظهر آيات الله تعالى.

وهكذا يتجلى الإعجاز العلمي في الإحساس بالألم بالتوافق بين حقائق الطب ومعجزات القرآن الكريم.

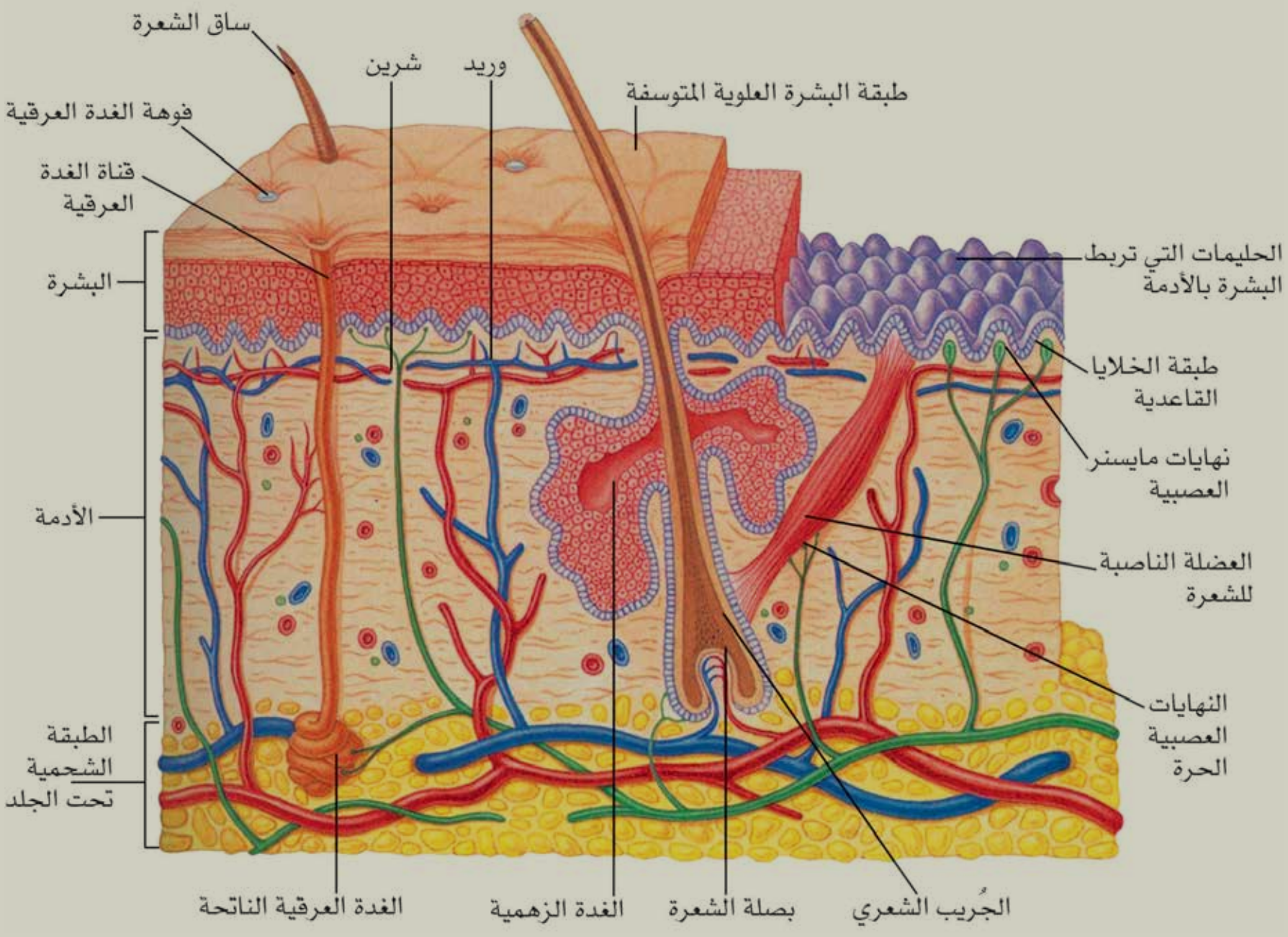

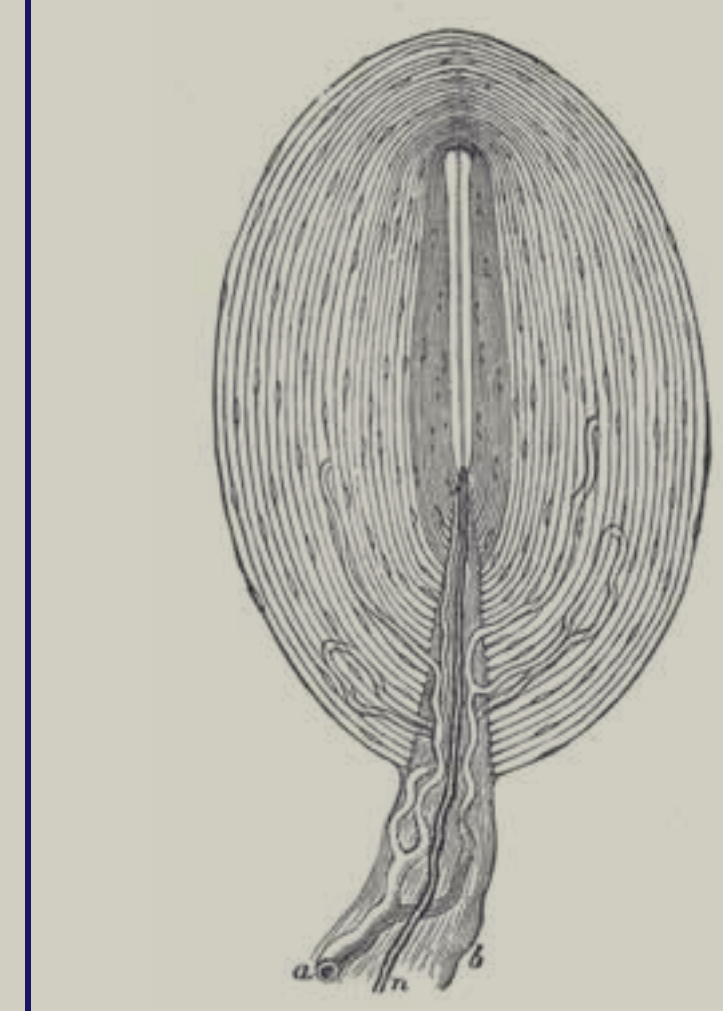

جسيم باسينيان
لنقل الإحساس بالضغط

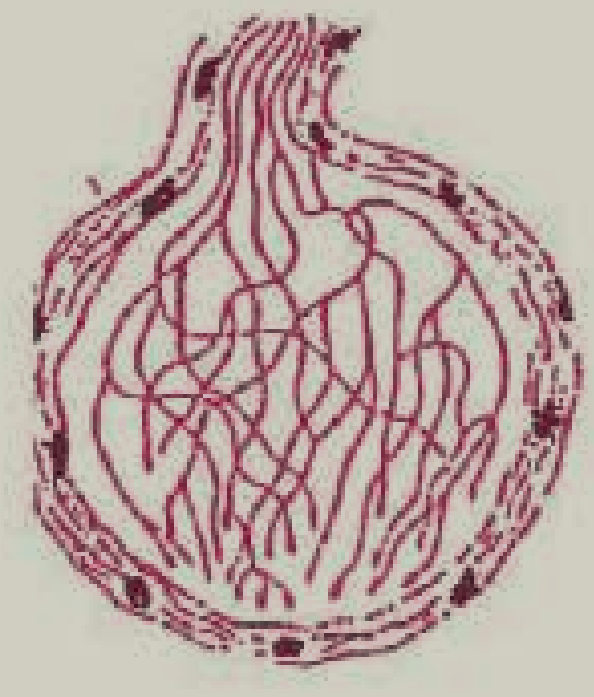

بصيلة كروز الطرفية
التي كان يُظن أنها
متلقية للبرودة

الحبة السوداء

ثبت في الصحيحين من حديث أم سلمة
عن أبي هريرة رضي اللّه عنه، أن رسول اللّه
صلى اللّه عليه وسلم قال:
"عليكم بهذه الحبة السوداء، فإن فيها
شفاء من كل داء إلا السام"
والسام: الموت.

الدلالة العلمية

استعملت الحبة السوداء في كثير من دول الشرق الأوسط والأقصى علاجا طبيعيا منذ أكثر من ألفي عام.

ولم يتضح دور الحبة السوداء في المناعة الطبيعية حتى عام ١٩٨٦ م إلا بالأبحاث التي أجراها الدكتور القاضي وزملاؤه في الولايات المتحدة الأمريكية. ثم توالت بعد ذلك الأبحاث في شتى الأقطار وفي مجالات عديدة حول هذا النبات، وقد أثبت القاضي أن للحبة السوداء أثرا مقويا لوظائف المناعة: حيث ازدادت نسبة الخلايا اللمفاوية التائية المساعدة إلى الخلايا التائية الكابحة إلى ٧٢ ٪ في المتوسط. وحدث تحسن في نشاط خلايا القاتل الطبيعي بنسبة ٧٤ ٪ في المتوسط. وقد جاءت نتائج بعض الدراسات الحديثة مؤكدة لنتائج أبحاث القاضي منها:

ما نشرته مجلة المناعة الدوائية في عدد أغسطس ١٩٩٥ م عن تأثير الحبة السوداء على الخلايا اللمفاوية الإنسانية في الخارج على عدة مطفرات، وعلى نشاط البلعمة لخلايا الدم البيضاء متعددة النواة، وما نشرته مجلة المناعة الدوائية في عدد سبتمبر ٢٠٠٠م (١٠) بحثا عن التأثير الوقائي لزيت الحبة السوداء ضد الإصابة بالفيروس المضخم للخلايا Cytomegalovirus في الفئران، حيث اختبر زيت الحبة السوداء كمضاد للفيروسات، وقيست المناعة المكتسبة أثناء الفترة المبكرة من الإصابة بالفيروس وذلك بتحديد خلايا القاتل الطبيعي والخلايا البلعمية الكبيرة وعملية البلعمة.

وجه الإعجاز

وردت كلمة شفاء في صيغ الأحاديث كلها غير معرفة بالألف واللام، وجاءت في سياق الإثبات فهي لذلك نكرة لا تعم في الغالب، وبالتالي يمكن أن نقول أن في الحبة السوداء نسبة من الشفاء في كل داء. وقد ثبت أن جهاز المناعة هو النظام الوحيد والفريد الذي يمتلك السلاح المتخصص للقضاء على كل داء، بما يحويه من نظام المناعة النوعية أو المكتسبة التي تمتلك إنشاء الأجسام المضادة المتخصصة لكل كائن مسبب للمرض، وتكوين سلاح الخلايا القاتلة المتخصصة، وقد ثبت من خلال الأبحاث التطبيقية أن الحبة السوداء تنشط المناعة النوعية؛ وأكدت الأبحاث المنشورة في الدوريات العلمية هذه الحقيقة؛ حيث تحسنت الخلايا الليمفاوية المساعدة وخلايا البلعمة، وازداد مركب الإنترفيرون، والإنترلوكين ١و ٢ وتحسنت المناعة الخلوية، وانعكس ذلك التحسن في جهاز المناعة على التأثير المدمر لمستخلص الحبة السوداء على الخلايا السرطانية وبعض الفيروسات، وتحسن آثار الإصابة بديدان البلهارسيا. وعليه يمكن أن نقرر أن في الحبة السوداء شفاء من كل داء؛ لأنها تصلح وتقوي جهاز المناعة.

وهكذا تجلت الحقيقة العلمية في هذه الأحاديث الشريفة والتي ما كان لأحد من البشر أن يدركها فضلا عن أن يقولها ويحدث الناس بها منذ أربعة عشر قرنا إلا نبي مرسل من الله.

((وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى(٤))) [النجم].

المفاصل في جسم الإنسان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل... الحديث"

رواه مسلم (الزكاة ١٦٧٥).

الدلالة العلمية

المفصل هو الالتقاء بين أي عظمتين أو عظمة وغضروف أو غضروفين في أي موضع بجسم الإنسان ما دام بينهما فاصل.

العدد الكلي للمفاصل حسب القواعد الموضوعة			
مفاصل الجمجمة	٨٦	مفاصل الجنحرة	٦
مفاصل القفص الصدري	٦٦	مفاصل العمود الفقري والحوض	٧٦
مفاصل الأطراف العلوية	٣٢×٢=٦٤	مفاصل الأطراف السفلية	٣١×٢= ٦٢
المجموع = ٣٦٠ مفصلاً			

روى الإمام مسلم عن عبد الله بن فروخ، أنه سمع عائشة تقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنه خلق كل إنسان من بنى آدم على ستين وثلاثمائة مفصل. فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجرا عن طريق الناس، أو شوكة أو عظما من طريق الناس، وأمر بمعروف، أو نهى عن منكر، عدد تلك الستين والثلاثمائة السلامى. فإنه يمشى يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار).

وعن عبد الله بن بُريدة قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: (فِي الإِنْسَانِ سِتُّونَ وَثَلاَثُمِائَةِ مَفْصِلٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْهَا صَدَقَةً). قَالُوا: فَمَنِ يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: (النُّخَاعَةُ فِي الْمَسْجِدِ تَدْفِنُهَا أَوِ الشَّىْءُ تُنَحِّيهِ عَنِ الطَّرِيقِ فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَرَكْعَتَا الضُّحَى تُجْزِئُ عَنْكَ) (مسند الإمام أحمد / ٢٣٧٠٠).

وجه الإعجاز

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن عدد المفاصل الموجودة في الجسم البشري ثلاثمائة وستون مفصلاً في زمن يستحيل فيه معرفة هذا العدد بهذه الدقة حيث أن معظم هذه المفاصل دقيقة وفي أماكن يصعب تحديدها بالملاحظة المجردة، ولم تحدد بدقة إلا بعد تقدم علم التشريح وعلم الأنسجة.

والمفصل هو: ملتقى العظمين في البدن. كما يقول علماء اللغة ويعبر عنه أيضا بالسُّلامى وجمعه سلاميَّات.

لقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم عدد المفاصل منذ أربعة عشر قرنا ليتطابق مع الواقع التشريحي لجسم الإنسان في هذا العصر، وهكذا تتضح آية جديدة من آيات الوحي ما كان لبشر أن يحيط بها في زمن النبوة.

((أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٤))) [تبارك]

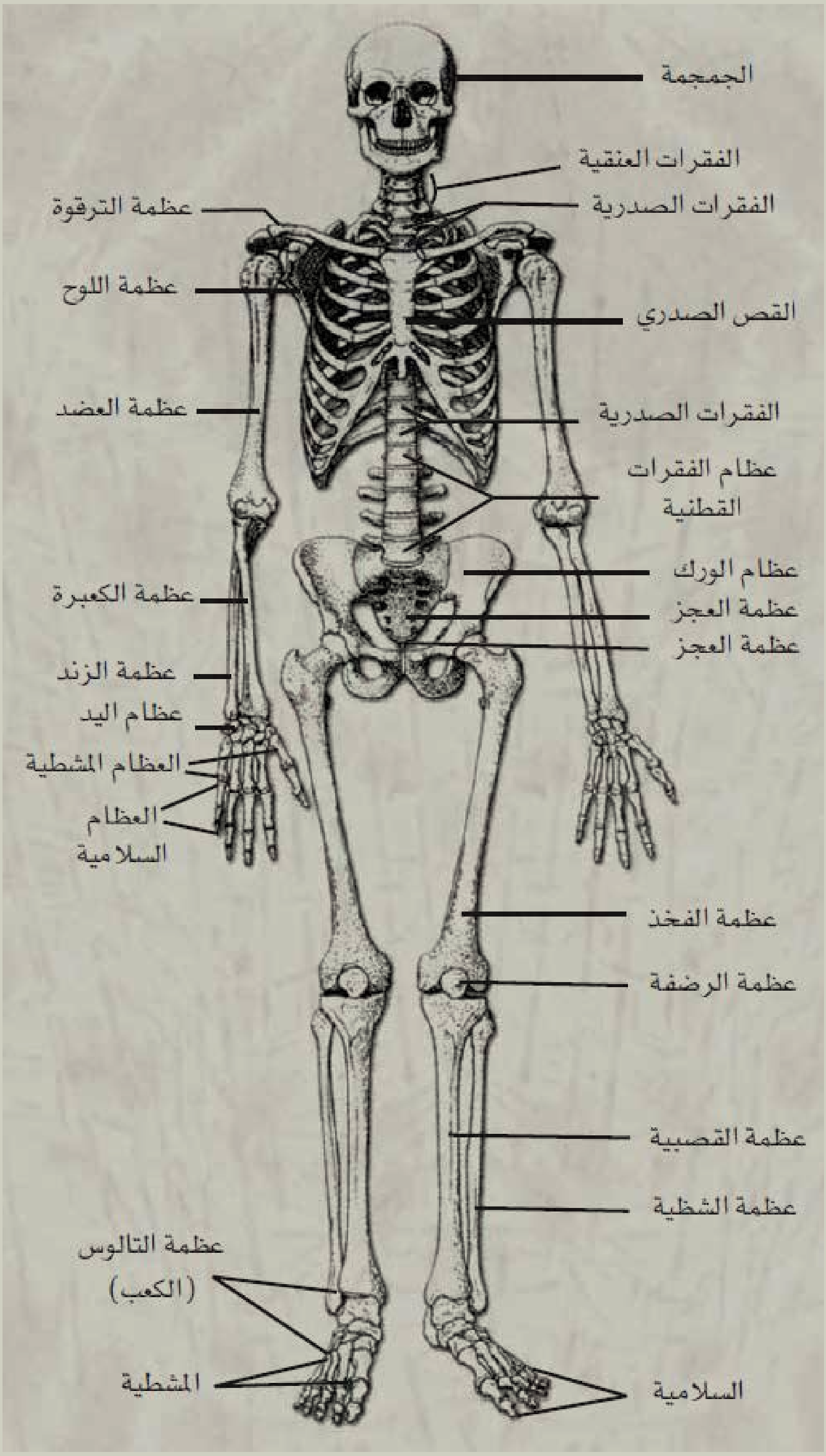

مظهر أمامي لعظام كائن بشري يوضح أجزاء الهيكل العظمي

الأمراض الجنسية

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

"لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها

إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن

مضت في أسلافهم الذين مضوا"

رواه ابن ماجه

الدلالة العلمية

كشف العلم الحديث على يد علماء الكائنات الدقيقة خلال القرنين الماضيين أن هناك مجموعة من البكتريا والفطريات والفيروسات لا تنتقل للإنسان إلا عن طريق ممارسة الجنس بطرق شاذة ...

كالعلاقات العديدة غير المحددة بين الرجال والنساء، والعلاقات الشاذة بين الرجال والرجال وبين النساء والنساء، وأنه إذا اتسعت دائرة هذه العلاقات فإن المجتمع مهدد بأمراض وبائية غير مسبوقة، لأن هذه الجراثيم تغير خواصها باستمرار مما يجعلها مستعصية العلاج، كما أن الجسم لا يستطيع مقاومتها لانعدام المناعة ضدها، ومن الممكن أن تظهر بصور و ِ صفات جديدة في المستقبل.

ومنذ سنوات قليلة مضت سميت هذه الأمراض بالأمراض التي تنتقل بواسطة الفواحش وتسمى اختصارا (S.T.D).

وجه الإعجاز

يكشف لنا الحديث النبوي عن سنة إجتماعية عامة يمكن أن تقع في أي مجتمع تتكون من مقدمة ونتائج ، فالمقدمة شيوع العلاقات المحرمة كالزنا والعلاقات الشاذة وعدم تجريمها والرضا بها، ثم الترويج لها، وهو ما اصطلح عليه بالإباحية الجنسية.

والنتائج المترتبة على هذه الإباحية شيوع الأمراض الجنسية وإنتشارها بصورة وبائية مدمرة وظهورها بصور جديدة في الأجيال التالية.
نعم لقد ظهرت فيهم الأمراض الجنسية في صورة وبائية سببت لهم من الآلام والأوجاع الشيء الكثير، فقد شهد العالم موجات كاسحة من انتشار وباء الزهري الذي حطم حياة الملايين، كما يتصدر مرض السيلان قائمة الأمراض المعدية، فهو أكثر الأمراض الجنسية شيوعا في العالم. ثم ظهر مؤخرا مرض الإيدز المرعب القاتل والذي يدمر فيروسه جهاز المناعة في الإنسان فتتدمر أعضاؤه واحدا بعد الآخر في سلسلة من الآلام والأوجاع التي لم يعرفها البشر من قبل وهكذا تحقق ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

أليس هذا دليلا إضافيا على أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقاً؟

أحد أعراض مرض الإيدز على الوجه وتورم العقد اللمفاوية

أحد أعراض مرض الزهري تشوه عظام الضلوع وتخمج الركبة

خريطة تبين سرعة انتشار (فشا) مرض الإيدز في العالم

الناصية

قال تعالى: كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ(١٦)

[العلق].

يحتوي دماغ الإنسان على فصوص رئيسة أربعة هي: الفص الأمامي Frontal Lobe ، والفص الخلفي Occipital Lobe ، والفص الصدغي Temporal Lobe ، والفص الجداري Parietal Lobe ، ولكل فص دور وظيفي ينفرد به عن الآخر، وفي نفس الوقت هي مكملة لبعضها البعض. والفص الأمامي يتميّز عن نظيره في الحيوان بأن المناطق المسئولة عن السلوك وعن الكلام متطورة وبارزة من الناحية التشريحية والوظيفية، وهو يحتوي على عدة مراكز عصبية تختلف فيما بينها من حيث الموقع والوظيفة وهي: القشرة الأمامية الجبهية Pre-Frontal ، وتقع مباشرة خلف الجبهة وهي تمثل الجزء الأكبر من الفص الأمامي للمخ، وترتبط وظيفتها بتكوين شخصية الفرد ولها أيضاً تأثير في تحديد المبادرة Initiative والتمييز Judgment.

ثم مركز بروكا لحركات النطق Motor Speech Area of Broca ويقوم بتنسيق الحركة بين الأعضاء التي تشترك في عملية الكلام كالحنجرة واللسان والوجه، ثم مناطق الحركة وتشمل الحقل العيني الجبهي Frontal Eye Field ويقوم بالتحريك المتوافق للعينين إلى الجهة المقابلة، ومركز حركة العضلات الأولي والثانوي Primary & Secondary Motor Areas وكلاهما مسئولان عن حركة العضلات الإرادية.

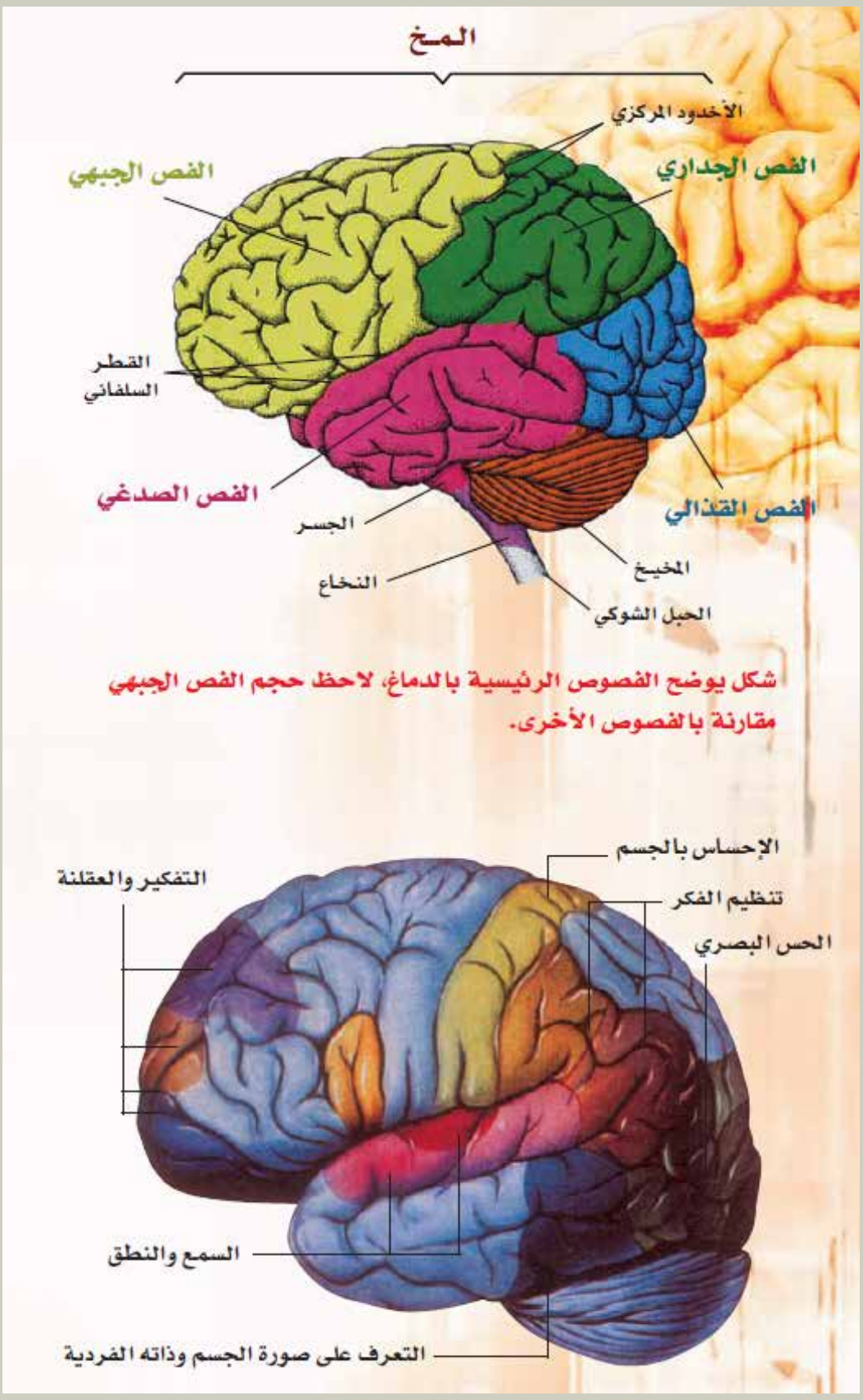

شكل يوضح الفصوص الرئيسية بالدماغ، لاحظ حجم الفص الجبهي مقارنة بالفصوص الأخرى.

وهكذا ثبت أن مقدمة الفص الأمامي القابعة في عمق الناصية هي الموجهة للسلوك والمميزة للشخصية، وقد تؤدي إصابتها إلى هبوط في المعايير الأخلاقية ودرجة التذكر والقدرة على حل المشكلات العقلية.

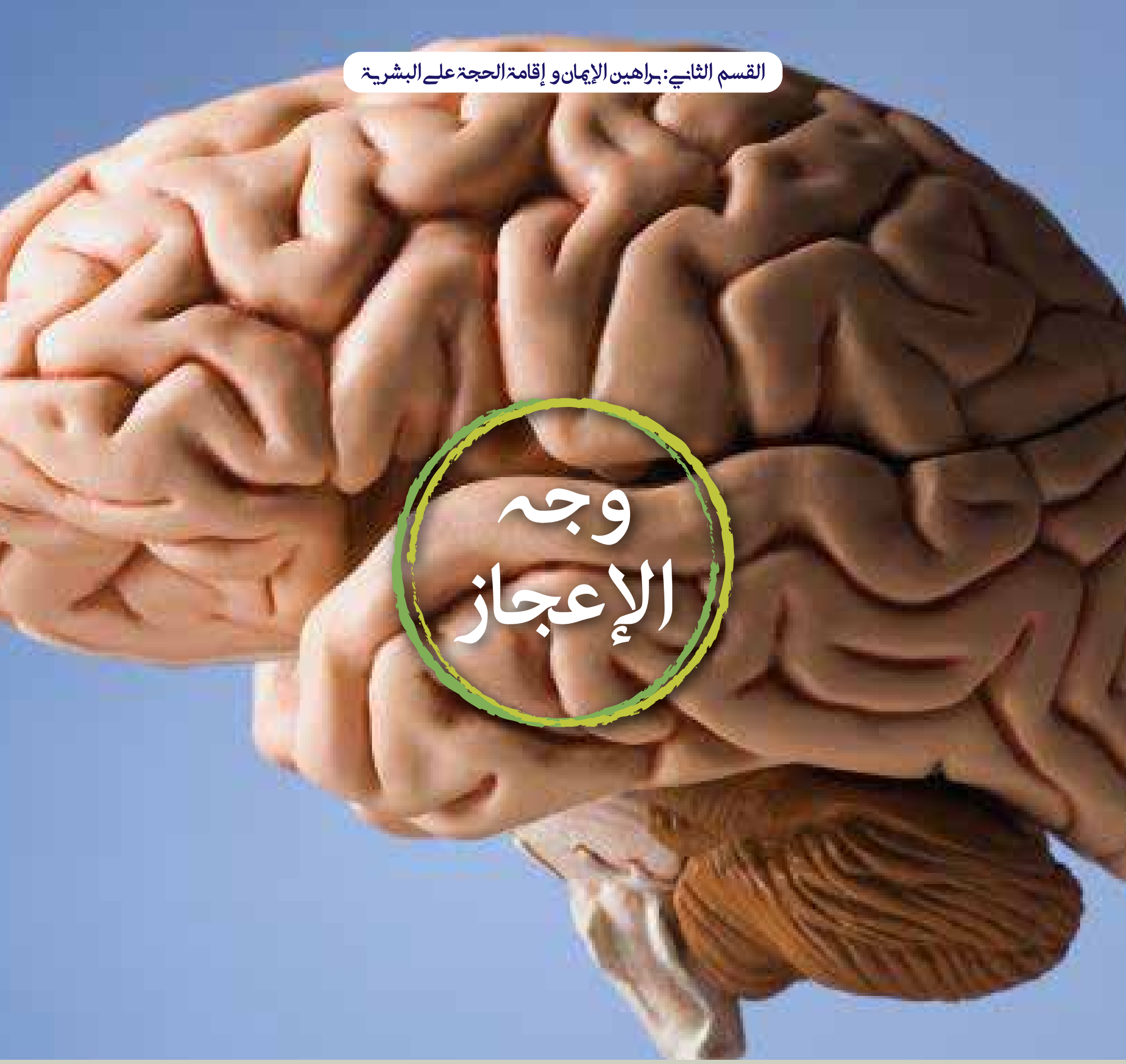

وجه الإعجاز

معضلة لم تُحل وتتضح كيفيتها إلا حديثا في عصر العلم، وهي أن القرآن الكريم قد خص منطقة الناصية أو مقدم الرأس دون بقية الأعضاء بالكذب والخطأ وتجريمها بلفظ السفع وهو القبض على الشيء وجذبه بشدة تصويرا لمحاسبة العضو المسئول حقيقة عن السلوك في الإنسان، وهذا الجزم في خصها وحدها بالمؤاخذة قبل اكتشاف دورها في توجيه السلوك وتمييز الشخصية لا تفسره مصادفة عند فطين.

ولحكمة شرع الله أن تسجد هذه الناصية وأن تطأطئ لله، ولعل هناك علاقة بين ناصية تسجد خاشعة وبين سلوك يستقيم قال تعالى:

((اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(٤٥)))

[العنكبوت].

خشأة الذرية

قال تعالى

(فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨) [الطارق]

السائل المنوي أشبه ما يكون بماء عديد النطف أي القطيرات، ولا يقوم بتخصيب البويضة مجهرياً إلا حيوان منوي واحد يماثل في عالم المرئيات بالعين المجردة نطفة (قطرة) من ماء، وتجتمع الأصول الخلوية للخصية في الذكر أو المبيض في الأنثى في ظهر الأبوين خلال نشأتهما الجنينية في عضو تناسل مشترك **Gonad**، ثم يخرج كل منهما من منطقة بين بدايات العمود الفقري (الصلب) وبدايات الضلوع (الترائب) ليهاجر المبيض إلى الحوض بجانب الرحم وتهاجر الخصية إلى كيس الصفن حيث الحرارة أقل وإلا فشلت عند البلوغ في إنتاج الحيوانات المنوية.

وجه الإعجاز

في قوله تعالى:

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾ [الطارق]

الماء الدافق تعبير وصفي للمني لأنه سائل كالماء في تعدد القطرات ولكن مكوناته تتدفق وتتحرك بنشاط ويصدق عليها الوصف باسم الفاعل (دَافِق) لدلالته على الحركة الذاتية، وتستقيم عودة كل الأوصاف على الإنسان.

والوصف: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ يبين موضع خروج الذرية، بينما يبين موضع تكونها قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف:١٧٢]

وقوله تعالى: ﴿أبنائكم الذين من اصلابكم﴾ [انساء:٢٣]

ولم يتضح ذلك إلا بعد أبحاث مضنية أعقبت اكتشاف المجهر.

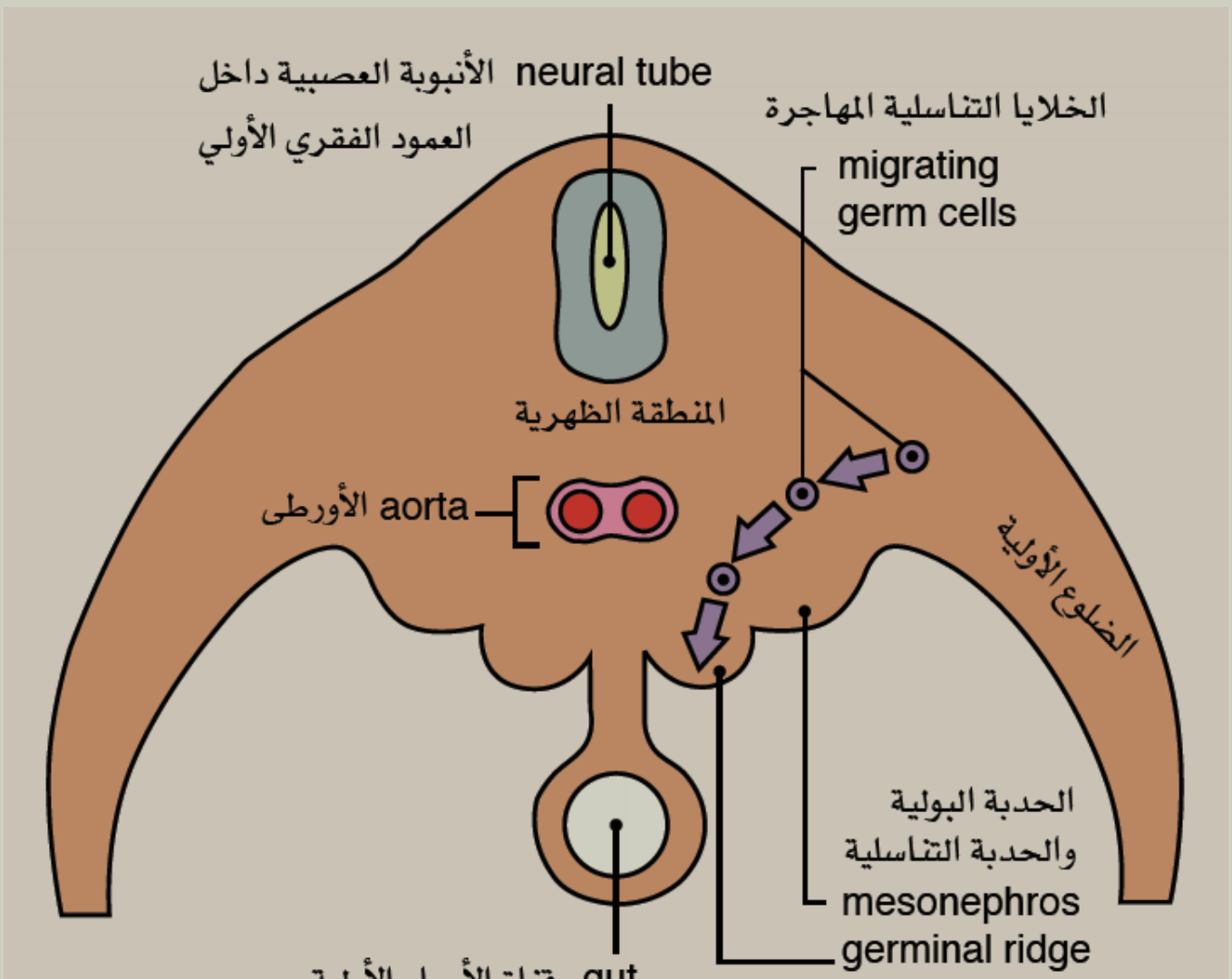

قطاع عرضي يبين نشأة الغدة التناسلية في المنطقة الظهرية للجنين (الأسبوع ٥-٦) وهجرة أصولها الخلوية بين بدايات العمود الفقري والضلوع قبل إنفصالها وتميزها.

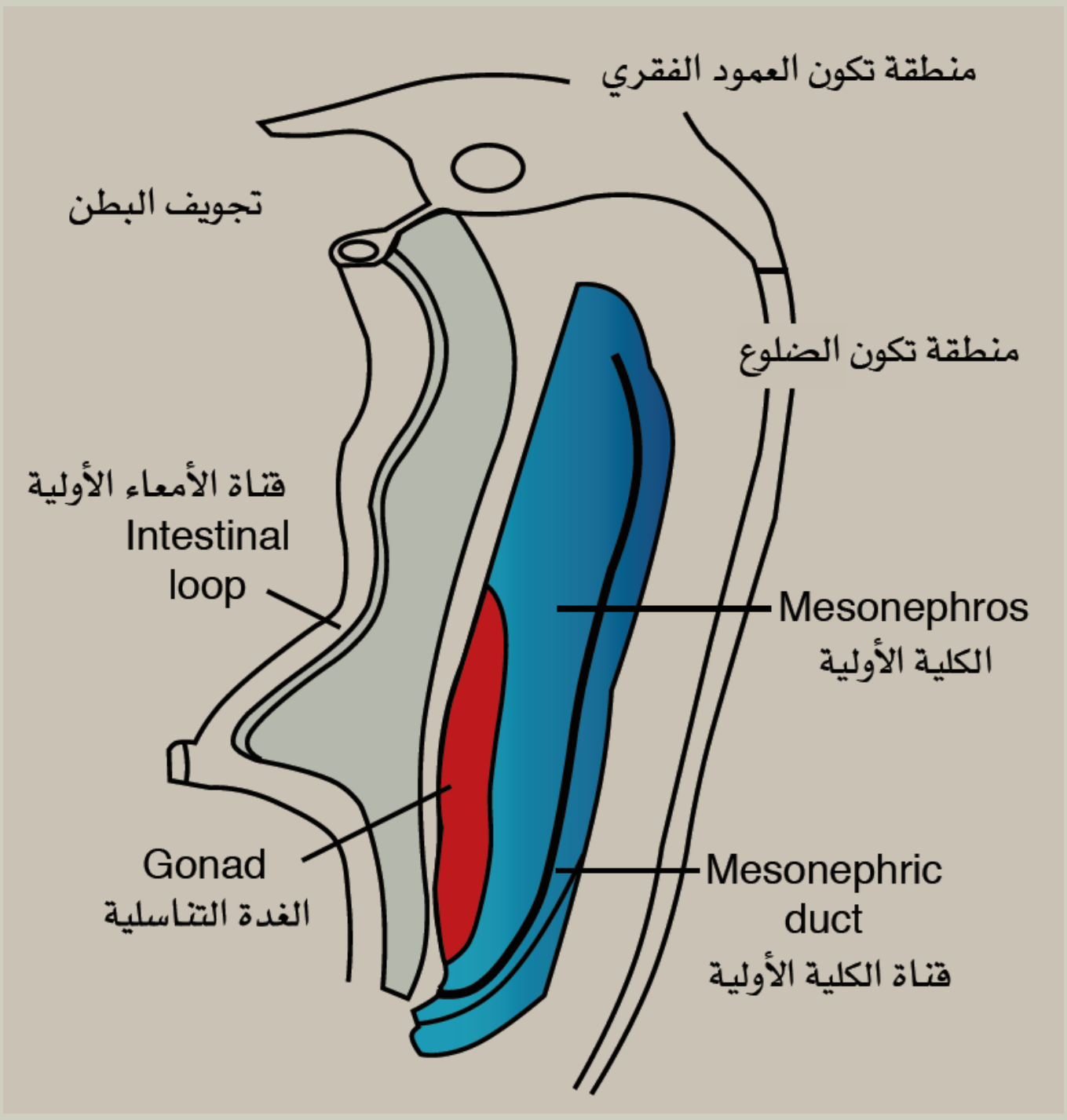

تقع بداية الغدة التناسلية مع الكلية في الجنسين بين بدايات العمود الفقري والضلوع في الجنين.

تداعي الجسد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم
وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه
عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »

رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

الدلالة العلمية

لقد كشفت الأبحاث العلمية المكثفة والمتوالية حقائق مذهلة عن تفاعل الجسم البشري عند مواجهة المخاطر كالإصابة بجرح أو مرض وتم اكتشاف الخطوط الدفاعية والاستجابات الوظيفية التي تحدث بالجسم حال إصابة عضو من أعضائه بالمرض أو بالجروح. وتلك الاستجابات تتناسب مع درجة معاناة العضو تناسباً طردياً؛ ففي حالة إصابة عضو مثلاً تدعو مراكز في المخ الغدة النخامية لإفراز هرموني يدعو باقي الغدد الصماء لتفرز مواداً تحفز وتدعو جميع أعضاء الجسم لتوجيه وظائفها لنجدة العضو المشتكي، وتتداعى أعضاء الجسد؛ بمعنى تتوجه بطاقتها لخدمة العضو المشتكي، فالقلب مثلاً يسرع بالنبضات لسرعة تدوير الدم في الوقت الذي تنقبض الأوعية الدموية بالأجزاء الخاملة من الجسم وتتسع الأوعية الدموية المحيطة بالعضو المصاب لكي تحمل له ما يحتاجه من طاقة وأوكسجين وأجسام مضادة وهرمونات وأحماض أمينية بناءة

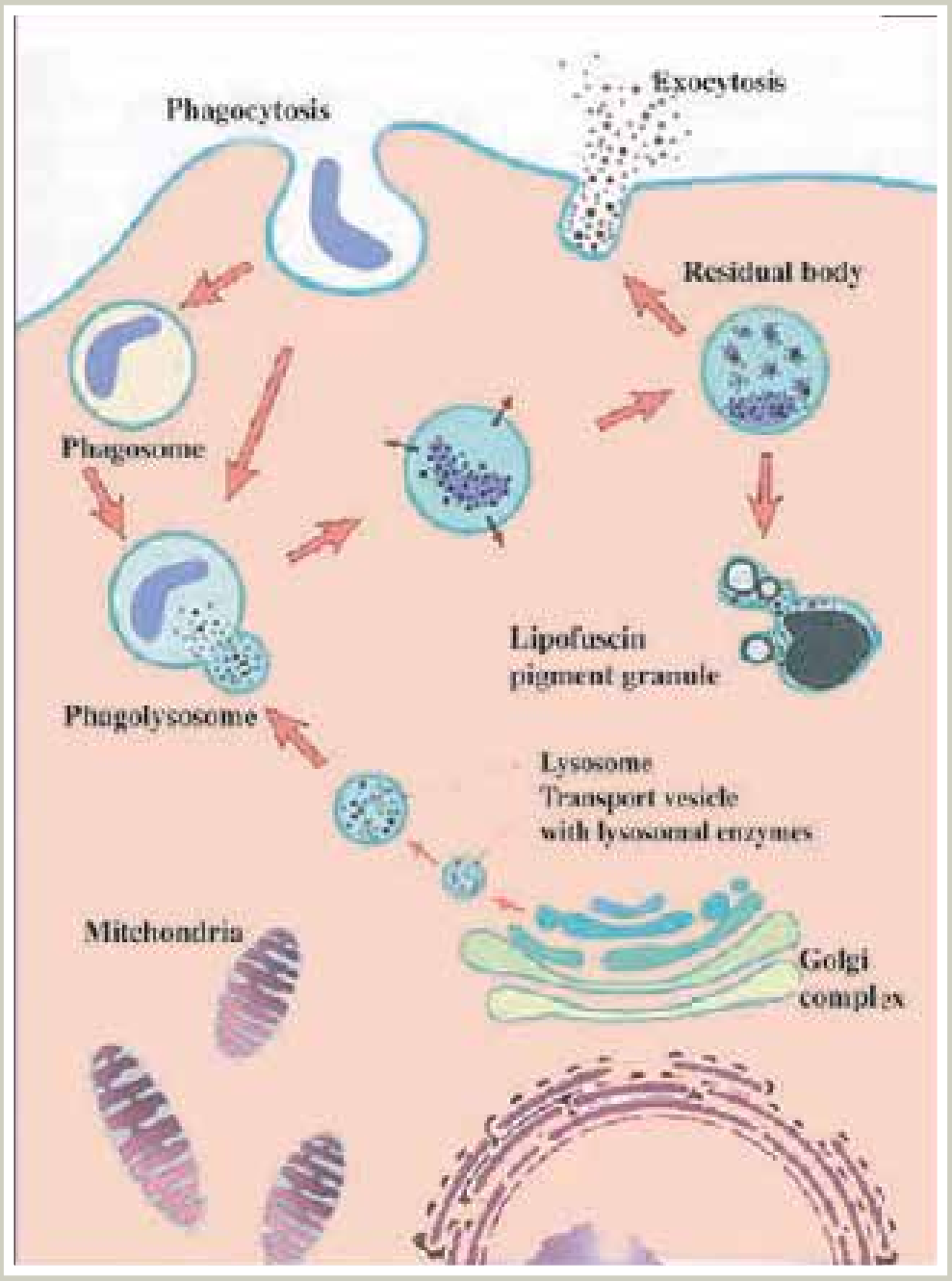

معركة حقيقية لخلايا متخصصة ضد الجسم المهاجم

وهو يتداعى بمعنى يتهدم وينهار فيبدأ بهدم مخزون الدهن لكي يعطي من نفسه لمصلحة العضو المصاب ما يحتاجه إلى أن تتم السيطرة على المرض ويتم التئام الأنسجة ثم بعد ذلك يعود الجسم لبناء نفسه، والإشارات المنبعثة من الجرح تمثل شكوى واستغاثات حقيقية تدعو إلى استنفار عام، فتنطلق نبضات عصبية من مكان الإصابة إلى الدماغ حيث مراكز الحس والتحكم غير الإرادي وتنبعث مواد كيماوية مع أول قطرة دم تنزف أو نسيج يتهتك، وتستجيب كافة أعضاء الجسم كلٌّ على حسب تخصصه، والمحصلة هي توجيه طاقة الجسم البشري ووظائف أعضائه لخدمة ذلك العضو المصاب.

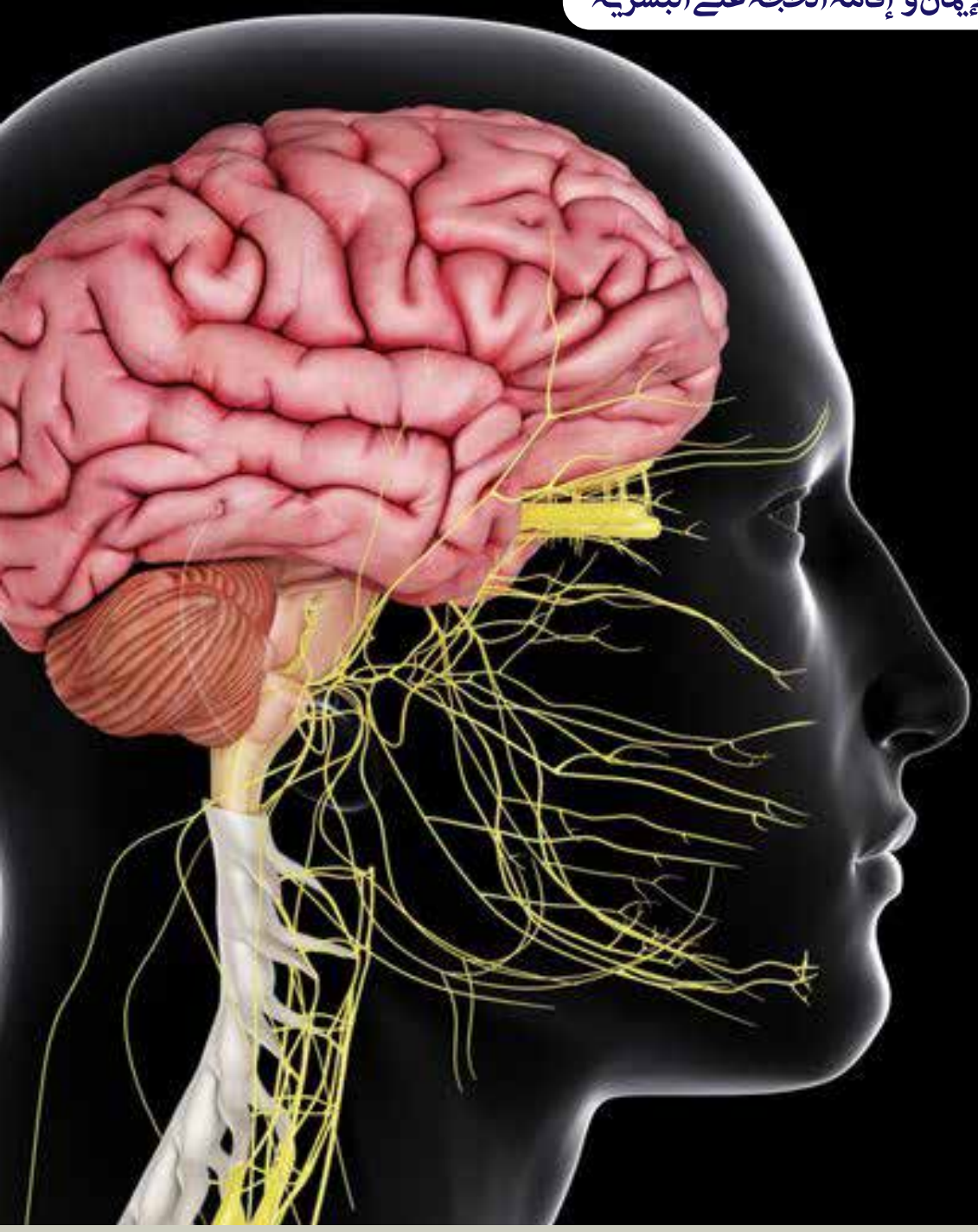

وجه الإعجاز

يخبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بما يجب أن يكون عليه حال الأمة الإسلامية من تواد وتعاطف وتراحم بضرب المثل بالجسد الواحد عندما يشتكي عضو من أعضائه، فبين أنه يتداعى كله من أجل ذلك العضو، ولا تجد أدق من كلمة تداعي لوصف ما يحدث في الجسم حيال شكوى أحد الأعضاء، وجاء الوصف في جملة شرطية قصيرة فعل الشرط فيها اشتكى وجوابه تداعى، فكان الإعجاز علمياً ولغوياً وبلاغياً في آن واحد؛ فقد أخبر بحقيقة ما يحدث داخل الجسم البشري حيث لم يكن لعين أن تلحظه مستخدماً كلمات جامعات تصف حقيقة ما يحدث بجميع المعاني الواردة في اللغة وبأسلوب التشبيه الذي يجسد المعنى في الذهن، ومن العجيب أن يستخدم الأطباء اسماً للجهاز العصبي الذي يتفاعل في حال تعرض الجسم للخطر والمرض لوصف حقيقة ما يفعله هذا النظام والجهاز فكانت ترجمته الحرفية: "المتواد المتعاطف والمتراحم" وهو عين ما سماه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث، فسبحان الله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأيده بالآيات البينة وجوامع الكلمات.

خلق الجنين في أطوار

قال تعالى:

(مَّا لَكُم لَا تَرجُونَ لِلَّهِ وَقَارا ١٣ وَقَد خَلَقَكُم أَطوَارًا ١٤)

[نوح]

الدلالة العلمية

استنتج هارفي Harvey عام ١٦٥١ أن الأجنة ليست إلا إفرازات رحمية، وفي عام ١٦٧٢ اكتشف جراف Graaf حويصلات في المبايض ما زالت تسمى باسمه Graafian Follicles ، واستنتج أن الأجنة ليست إفرازات من الرحم وإنما من المبايض.

وفي عام ١٦٧٧ اكتشف "هام" Hamm و"ليفنهوك" Leeuwenhoek الحوين المنوي للإنسان للمرة الأولى في التاريخ، ولكنهما لم يدركا دوره الحقيقي في الإنجاب، وظنا أيضاً أنه يحتوي على الإنسان مصغراً لينمو في الرحم بلا أطوار تخليق. كما أكدت تجارب "إسبالانزاني" Spallanzani على الكلاب على أهمية الحوينات المنوية في عملية التخليق.

وفي عام ١٨٢٧ أي بعد حوالي ١٥٠ سنة من اكتشاف الحوين المنوي عاين "فون بير" Von Baer البويضة في حويصلة مبيض إحدى الكلاب. وفي عام ١٨٣٩ تأكد "شليدن" Schleiden و"شوان" Schwann من تكون الجسم البشري من وحدات بنائية أساسية حية ونواتجها، وسميت تلك الوحدات بالخلايا Cells وأصبح من اليسير لاحقاً تفهم حقيقة تخلُّق الإنسان في أطوار من خلية مخصبة ناتجة عن الاتحاد بين الحوين المنوي والبويضة.

وجه الإعجاز

يدل النص الكريم على أن الإنسان لا يخلق فجأة وفق الاعتقاد الذي ساد إلى القرن قبل الماضي منذ عهد أرسطو قبل الميلاد، وإنما في أطوار ثابتة التقدير تشمل كل فرد رغم تعدد الأجناس وتتابع الأجيال.

يشهد تاريخ علم الأجنة بتخبط النبهاء في كيفية تخلُّق الإنسان، بينما يعلن القرآن الكريم منذ القرن السابع الميلادي بأن الإنسان لا يوجد فجأة وإنما في أطوار مقدرة كتشييد عمارة وفق تصميم مسبق.

والصدفة لا تفسر الأطوار المقدرة وإنما تشهد بالحكمة والقصد وقدرة الله وعلمه المحيط وبديع صنعه، أما وحدة الإعداد والتخطيط وثبات الأطوار رغم تعدد الأجناس وتتابع الأجيال فتقطع بوحدانية الخالق العظيم.

ظلت فكرة أرسطو بتخلُّق الجنين من دم الحيض إلى القرن السابع عشر حيث اكتُشف المجهر ومع ذلك اعتقد العلماء بتخلُّقه كاملاً بلا أطوار.

مراحل نمو الجنين

Stages human embryonic development

الحجر الصحي

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها » رواه الشيخان.

وقال صلى الله عليه وسلم:

« الفار من الطاعون كالفار من الزحف ومن صبر فيه كان له أجر شهيد » رواه أحمد.

الدلالة العلمية

تقدمت العلوم واكتشفت العوالم الخفية من الكائنات الدقيقة، وعرفت طرق تكاثرها وانتشارها وتسببها في حدوث الأمراض والأوبئة وتبين أن الأصحاء الذين لا تبدو عليه أعراض المرض في مكان الوباء هم حاملون لميكروب المرض وأنهم يشكلون مصدر الخطر الحقيقي في نقل الوباء إلى أماكن أخرى إذا انتقلوا إليها، وبسبب اكتشاف هذه الحقيقة نشأ نظام الحجر الصحي المعروف عالمياً الآن والذي يمنع فيه جميع سكان المدينة التي ظهر فيها الوباء من الخروج منها كما يمنع دخولها لأي قادم إليها. ولقد ضربت موجات الطاعون أوربا في القرن الخامس عشر الميلادي فقضت على ربع سكانها، بينما كانت تنكسر حدتها عند حدود العالم الإسلامي. لقد كانت الأوبئة الفتاكة والأمراض المعدية في العالم الإسلامي أقل بكثير منها في أوربا في نفس المرحلة.

وجه الإعجاز

وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدة أساسية تعتبر من أساسيات الطب الوقائي الحديث بعد اكتشاف مسببات الأمراض والأوبئة، وهي قاعدة الحجر الصحي، منعاً لانتشار الأوبئة المدمرة في المدن والتجمعات البشرية، فقرر صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة العلمية في قوله: (إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه) رواه الشيخان.

ولضمان تنفيذ هذه الوصية النبوية العظيمة ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم سوراً منيعاً حول مكان الوباء، فوعد الصابر والمحتسب بالبقاء في مكان المرض بأجر الشهداء، وحذر الفار منه بالويل والثبور، قال صلى الله عليه وسلم: (الفار من الطاعون كالفار من الزحف ومن صبر فيه كان له أجر شهيد) رواه أحمد.

مجموعة من أنواع الجراثيم التي تصيب الإنسان

وقد كان المسلمون هم الوحيدون بين البشر الذين لا يفرون من مكان الوباء منفذين أمر نبيهم ولا يدركون لذلك حكمة وكانوا محط سخرية من غير المسلمين لذلك التصرف حتى اكتشف أن الأصحاء ذوا المناعة الأقوى؛ الذين لا تبدو عليهم أعراض المرض في مكان الوباء هم حاملون لميكروب المرض الوبائي، وأنهم يشكلون مصدر الخطر الحقيقي في نقل الوباء إلى أماكن أخرى إذا انتقلوا إليها، ولأنهم يتحركون ويختلطون بالأصحاء بلا حذر أوخوف فينقلون لهم جرثومة الوباء المدمرة فهم أخطر من المرضى الحقيقين لتجنب الناس لهم.

عجب الذنب

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

« كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ »

أخرجه البخاري والنسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد في المسند ومالك في الموطأ.

الدلالة العلمية

أوضح علم الأجنة الحديث أن عجب الذنب هو الشريط الأولي Primitive Streak حيث إن هذا الشريط الأولي هو الذي يتكون -إثر ظهوره- الجنين بكافة طبقاته وخاصة الجهاز العصبي، ثم يندثر هذا الشريط ولا يبقى منه إلا أثر فيما يسمى عظم العصعصي (عجب الذنب) وهكذا فإن تكون الشريط الأولي علامة هامة على بداية تمايز أنسجة الجنين وتكوُّن الطبقات المختلفة ومنها الأعضاء، والواقع أن ما يعرف بمرحلة تكوُّن الأعضاء Organogenesis لا تبدأ إلا بعد تكوُّن الشريط الأولي والميزاب العصبي والكتل البدنية. وتستمر من بداية الأسبوع الرابع إلى نهاية الأسبوع الثامن، بحيث يكون الجنين في نهاية هذه الفترة قد استكمل وجود جميع الأجهزة الأساسية فيه، وتكونت أعضاؤه ولم يبق إلا التفصيلات الدقيقة والنمو.

مصير الشريط الأولي Primitive Streak:

ما يكاد ينتهي الشريط الأولي من مهمته تلك في الأسبوع الرابع

حتى يبدأ في الاندثار ويبقى كامناً في المنطقة العجزية – العصعصية – في الجنين ثم في المولود، ويندثر ما عدا ذلك الأثر الضئيل الذي لا يري بالعين المجردة.

وجه الإعجاز

إن أحاديث عجب الذنب من معجزاته صلى الله عليه وسلم. فقد أوضح علم الأجنة الحديث، أن الإنسان يتكون، وينشأ من عجب الذنب هذا (يدعونه الشريط الأولي Primitive Streak)، وهو الذي يحفز الخلايا على الانقسام، والتخصص، والتمايز، وعلى أثره مباشرة يظهر الجهاز العصبي في صورته الأولية (الميزاب العصبي، ثم الأنبوب العصبي ثم الجهاز العصبي بأكمله) ثم بقية الأعضاء، ويندثر هذا الشريط الأولي إلا جزءاً يسيراً منه يبقى في المنطقة العصعصية التي يتكون فيها عظم الذنب (عظم العصعص)، ومنه يعاد تركيب خلق الإنسان يوم القيامة كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم:

« كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ ».

لحم الخنزير

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيتَةً أَو دَماً مَّسفُوحًا أَو لَحمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجسٌ أَو فِسقًا أُهِلَّ لِغَيرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضطُرَّ غَيرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤٥﴾ [الأنعام]

جاء العلم ليدرك بعض الوجوه في منهيات التشريع الإسلامي الذي حفظ أتباعه قروناً قبل اكتشاف المجاهر وبنفس الترتيب: الميتة حيث تنمو البكتريا، ثم الدم حيث تنمو البكتريا أسرع خاصة مع كثرته، وأخيراً الخنزير حيث تجتمع في بدنه جملة بلايا لا يزيلها تطهير، فالحلوف مأوى للطفيليات والبكتريا والفيروسات يصدرها إلى الإنسان والحيوان؛ وبعضها يخص الخنزير مثل طفيل الزحار البلنتيدي Balantidium Dysentery والشعرينيات الحلزونية Trchinella Spiralis، وشريطية الخنزير Taenia Solium والديدان المثانية Cysticercosis، وبعضها يصنف ضمن أمراض كثيرة مشتركة بين الإنسان والحيوان Zoonoses منها سلالات من الأنفلونزا Influenza وطفيل الفاشيولا Fasciolopsis Buski في الصين وثعبان البطن Ascaris.

ويكثر وجود مرض الزحار البلنتيدي Balantidiasis عند رعاة الخنازير ومخالطيهم وقد ينتشر بصورة وبائية كما حدث في إحدى جزر المحيط الهادي بعد إعصار نشر روث الخنازير.

ويوجد المرض حيث يوجد الخنزير في بلدان متقدمة صناعياً معارضاً الإدعاء بإمكان التغلب على قذارته بوسائل تقنية حديثة تجعل تحريم أكل لحمه بلا مستند، خاصة في ألمانيا وفرنسا والفلبين وفنزويلا، وتحدث الإصابة بمرض الشعرينيات الحلزونية Trichinellosis نتيجة أكل لحم عضلات خنزير مصابة.

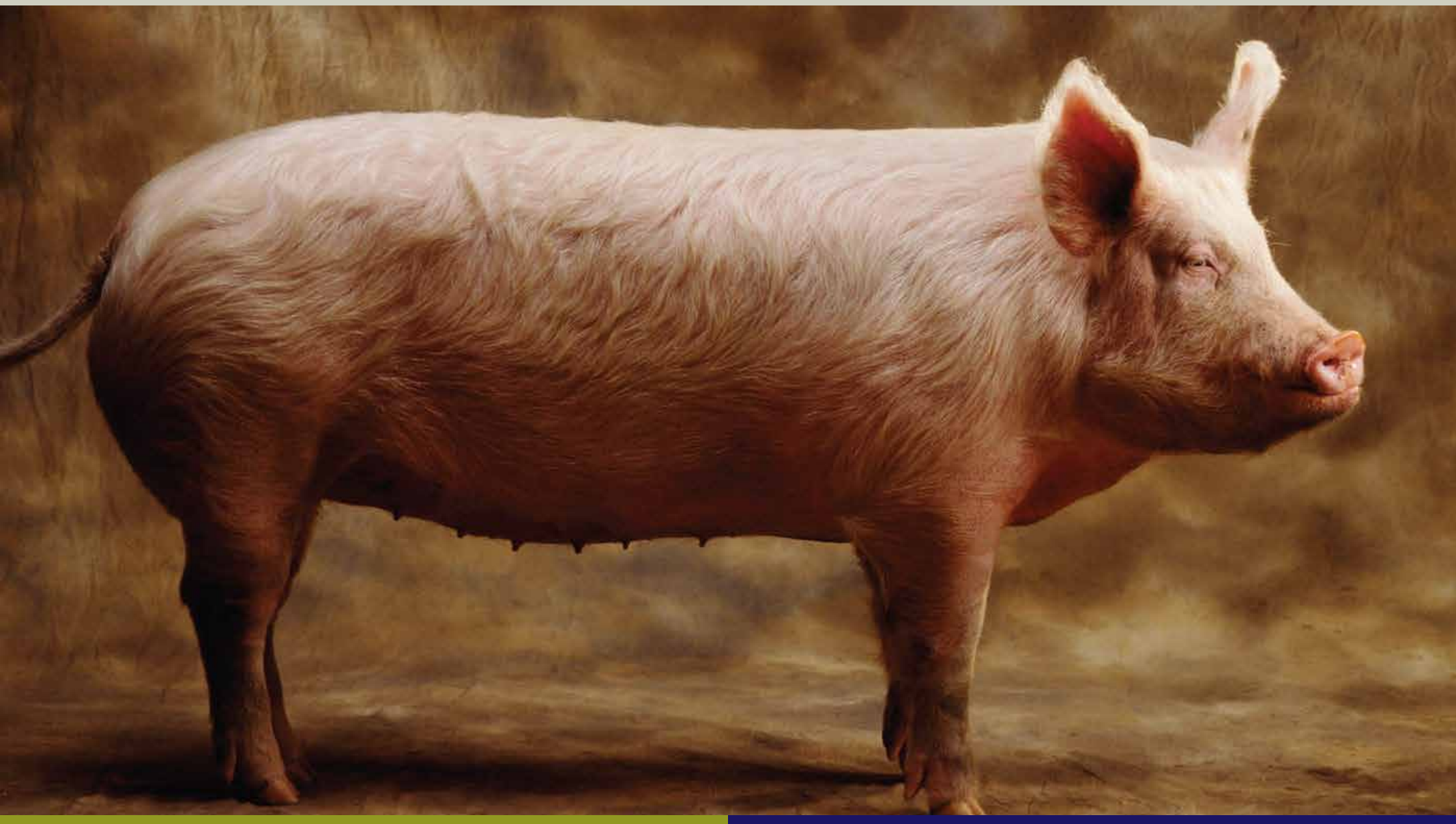

وجه الإعجاز

الخنزير سيء الطباع جلّال، وقد دفع النفور منه عند الوثنيين إلى اعتباره قاتلاً لرموز الخير؛ فرَوَت الأساطير أنه قتل حورس عند المصريين القدماء، وأدون (بعل) عند الكنعانيين، وأدونيس عند الإغريق، وأتيس في آسيا الصغرى.

واعتبر رعي الخنازير في مصر القديمة من أحط المهن التي لا يقوم بها إلا المعدمون، ولا يدخل راعي الخنازير الهيكل ولا يتزوج إلا من بنات أمثاله، وعلى من يلمس خنزيراً أن يغتسل.

وهو محرم عند أهل الكتاب وإن خالفوه، ولكن القرآن قد علل النهي عن أكل لحمه بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ رِجسٌ﴾؛ والرجس Filth كلمة جامعة تعني أنه قذر ودنس ونجس يحمل الأذى والضرر، ويعم التحريم ما يؤكل فيشمل الشحم. وتحريمه وحده على اليهود يؤكد أن الأصل دخوله مع اللحم كطعام، وتحريم اللحم يحرم الشحم حتى كعلف لحيوان يأكله إنسان.

أدنى الأرض

قال تعالى:

(غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدنَى ٱلأَرضِ وَهُم مِّن بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغلِبُونَ ٣) [الروم]

تذكر المراجع التاريخية وقوع معركة بين مملكتي فارس وبين الإمبراطورية البيزنطية - وهي الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية - في منطقة بين أذرعات وبصرى قرب البحر الميت حيث انتصر فيها الفرس انتصاراً ساحقاً على الرومان، وكان ذلك سنة ٦١٩م. وقد خسر الروم البيزنطيون في هذه المعركة خسائر فادحة، وتوقع جميع المعاصرين لهم دماراً كاملاً لإمبراطوريتهم.

لكن حدث ما لم يكن متوقعاً ففي شهر ديسمبر من عام ٦٢٧م وقعت معركة حاسمة بين البيزنطيين وإمبراطورية الفرس بمنطقة ناي نيفا Nineveh هزم فيها الروم الفرس. وبعد أشهر قليلة لجأ الفرس إلى إبرام اتفاقية مع بيزنطة تجبرهم على إعادة المناطق التي أخذوها منهم.

وتوضح المصورات الجغرافية لمستوى المنخفضات الأرضية في العالم أن أخفض منطقة على سطح الأرض هي تلك المنطقة التي بقرب البحر الميت في فلسطين حيث تنخفض عن سطح البحر بعمق (٣٩٥) متراً. وقد أكدت ذلك صور وقياسات الأقمار الاصطناعية.

وجه الإعجاز

هناك وجهان للإعجاز في هذه الآيات الكريمة...

الوجه الأول: تحقق ما وعد به القرآن الكريم بعد سبع سنوات، حيث وقعت معركة بين الفرس والروم سنة ٦٢٧م وانتصر فيها الروم وتزامن ذلك مع انتصار المسلمين على مشركي قريش في غزوة بدر الكبرى.

الوجه الثاني: أنها قررت حقيقة جغرافية لم تكن معروفة عند أحد في ذلك الوقت، حيث أخبرت أن الروم خسروا المعركة مع الفرس في أدنى منطقة من الأرض. وكلمة أدنى عند العرب تأتي بمعنيين: أقرب وأخفض، فهي من جهة أقرب منطقة لشبه الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى هي أخفض منطقة على سطح الأرض،وهي أخفض نقطة سجلتها الأقمار الاصطناعية على اليابسة، كما ذكرت ذلك الموسوعة البريطانية، والحقيقة التاريخية تشهد أن المعركة وقعت في أكثر مناطق العالم انخفاضاً في حوض البحر الميت، أليس هذا دليلاً على أن القرآن هو وحي من عند الله. قال تعالى:

﴿قُل أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ﴾ [الفرقان:٦]

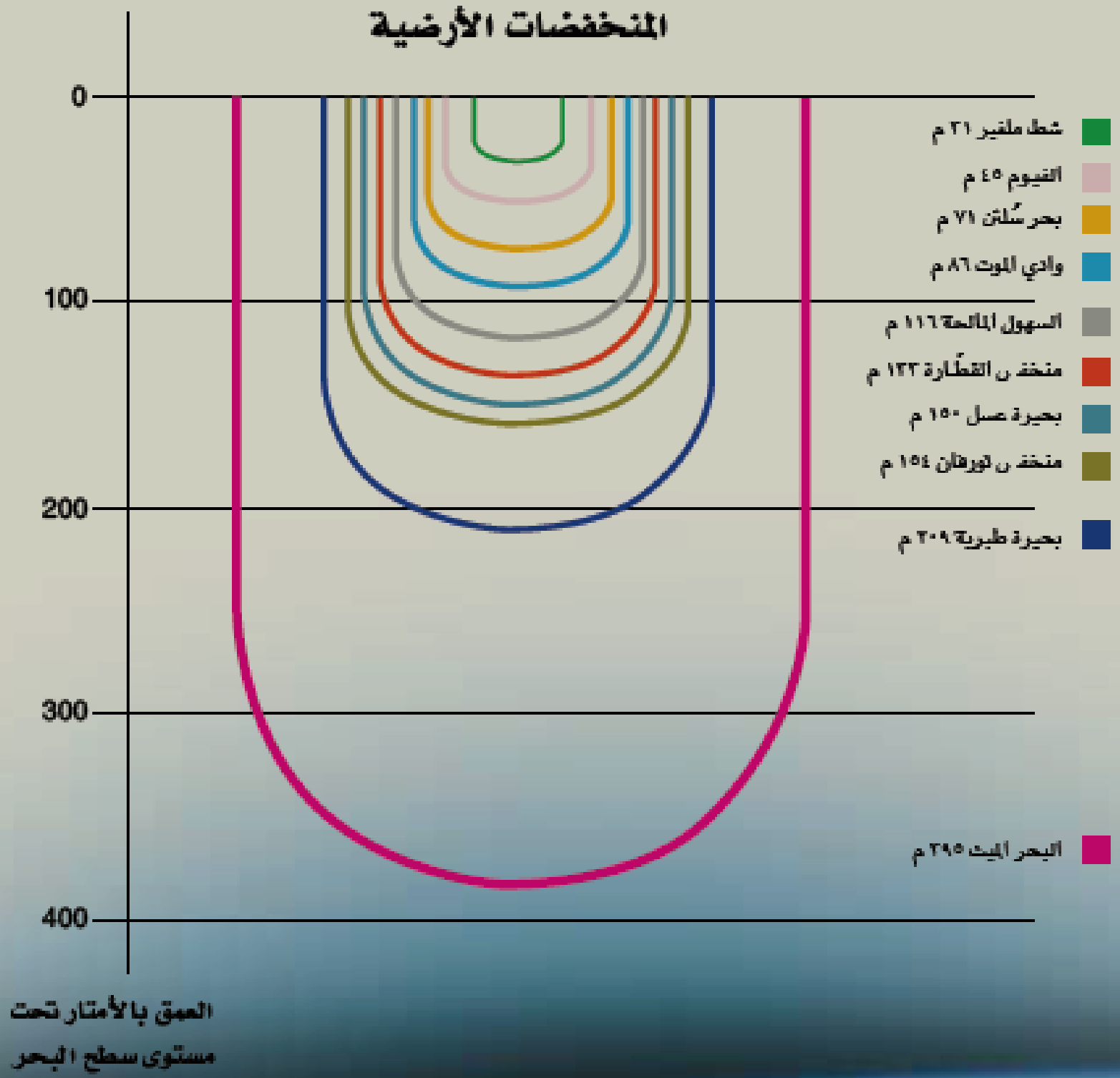
المنخفضات الأرضية
0
100
200
300
400
شط ملغير ٢١ م
الفيوم ٤٥ م
بحر سُلتن ٧١ م
وادي الموت ٨٦ م
السهول المالحة ١١٦ م
منخف ن القطّارة ١٢٣ م
بحيرة عسل ١٥٠ م
منخف ن لورفان ١٥٤ م
بحيرة طبرية ٢٠٩ م
البحر الميت ٢٩٥ م
العمق بالأمتار تحت
مستوى سطح البحر

١٠٠ متر
تحت سطح البحر
سطح البحر

والأرض ذات الصدع

قال تعالى:

(وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ)

[الطارق- ١٢]

الدلالة العلمية

اكتشف علماء الجيولوجيا حديثاً أن القشرة الأرضية مقسمة بشبكة من الصدوع العميقة إلى اثني عشر قطعة رئيسية متجاورة يسمى كل منها لوحاً **Plate**، بالإضافة إلى عدة ألواح صغيرة تسمى لويحات **Platelets**، وتطفو هذه الألواح على طبقة شبه منصهرة، وتصعد الصهارة **Magma** من بينها في قيعان المحيطات وتضيف مادة جديدة إلى كل لوحين متجاورين، وبزيادة اللوح من طرف ينقص من الطرف الآخر دوماً بالانثناء تحت طرف اللوح المجاور، وهكذا تبين تميز وجود صدوع عميقة في منتصف المحيطات **Mid-Oceanic Rifts**، وتمتد تلك الصدوع لتغطي القشرة الأرضية بأكملها وقد يصل عمقها إلى حوالي ١٥٠ كم بعمق القشرة ذاتها في أسمك منطقة، وتبين كذلك أن جميع القارات المعلومة اليوم وما يميزها من جبال تتحرك بحركة الألواح التي تحملها متقاربة أو متباعدة عن بعضها البعض حركة بطيئة لتحقق مسافة لا تتجاوز عدداً قليلاً من السنتيمترات كل سنة ولكنها حركة مستمرة.

فمثلاً يتسع شق البحر الأحمر بنسبة ٣ سم في السنة، وشق خليج كاليفورنيا بنسبة ٦ سم في السنة، وتسبَّبَ تصادم اللوح الهندي مع اللوح المجاور -بعد تآكل اللوح الذي كان بينهما- في تكوين سلسلة جبال الهيمالايا والتي تمتلك أعلى قمم على سطح الأرض. ويعتقد حالياً بأن القارات الشابة كانت متكتلة مع بعضها البعض منذ حوالي ٢٠٠ مليون سنة لتكون قارة وحيدة ضخمة ومحيطاً واحداً يحيط بها جميعاً، ومع انقسامها سمي الصدع الأصلي بصدع المنتصف الأطلنطي Mid-Atlantic Ridge ومازال إلى اليوم يمثل منطقة نشطة بركانياً.

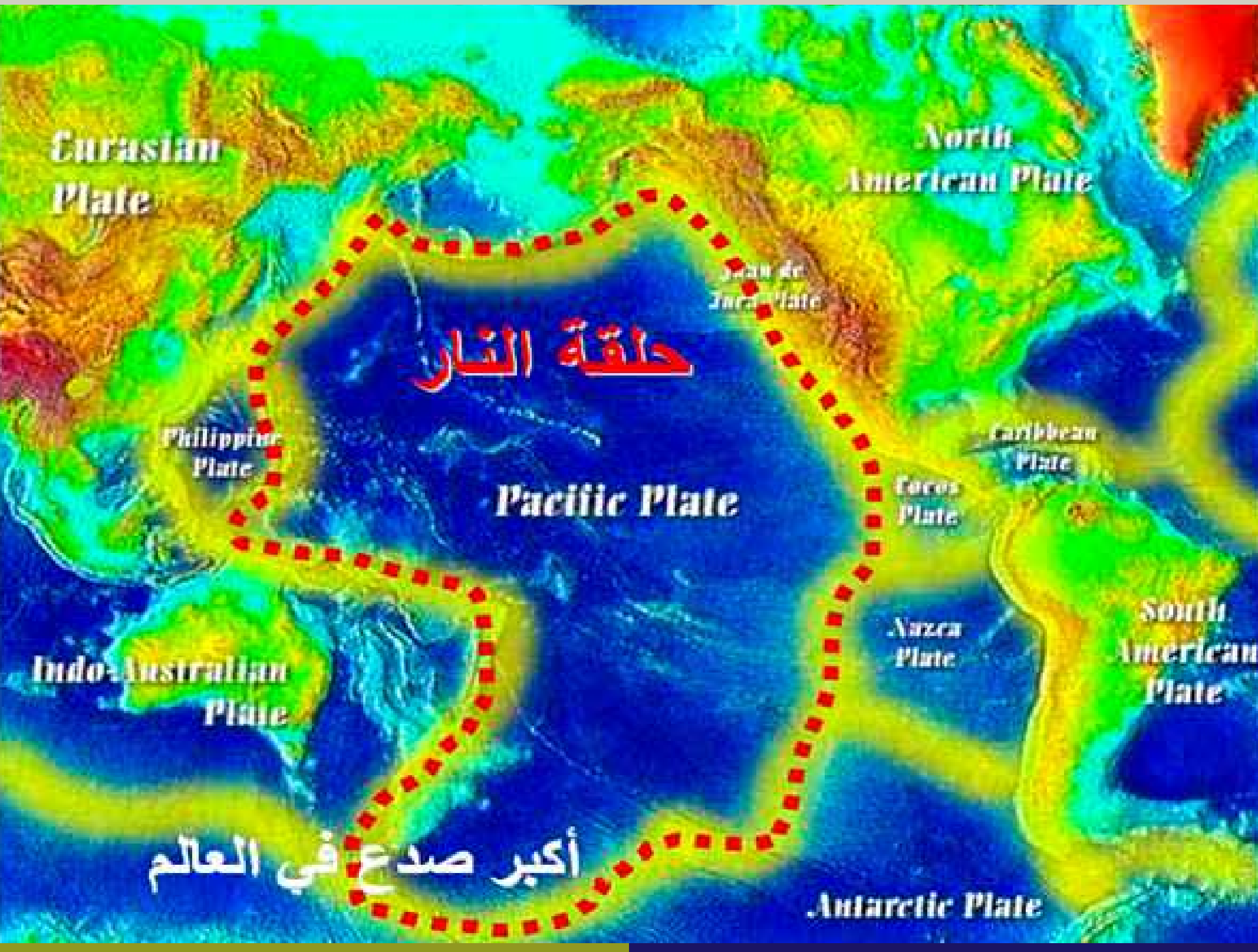

وجه الإعجاز

لم تكتشف صدوع منتصف المحيطات **Mid-Ocean Rifts** إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وتم شرحها من خلال نظرية الألواح التكتونية **Tectonic Plates** التي صيغت في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي فقط.

ومن الناحية العلمية تمثل تلك الصدوع الممتدة عميقاً تحت سطح الأرض أبرز معلم للقشرة الأرضية، وبالتالي يعتبر سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقيقة المخبوءة عميقاً تحت سطح الأرض دليلاً جازماً على أنه كلام الله العليم الحكيم.

الجبال أوتاد

قال تعالى:

(وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗ)

[النبأ - ٧]

الدلالة العلمية

لم يعرف عن الجبال سابقاً إلا أنها كتل صخرية عالية الارتفاع عن سطح الأرض، واستمر هذا التعريف إلى أن أشار «بيير بوجر» عام ١٨٣٥م إلى أن قوى الجذب المسجلة لسلاسل جبال الإنديز أقل بكثير مما هو متوقع من كتلة صخرية هائلة بهذا الحجم، فاقترح ضرورة وجود كتلة أكبر غائصة من نفس مادة تلك الجبال حتى يكتمل تفسير الشذوذ في مقدار الجاذبية. وفي أواسط القرن التاسع عشر أشار «جورج إيفرست» إلى وجود شذوذ في نتائج قياس جاذبية جبال الهيمالايا بين موقعين مختلفين، ولم يستطع «إيفرست» تفسير تلك الظاهرة فسمّاها "لغز الهند"، وأعلن جورج إبري سنة ١٨٦٥ أن جميع سلاسل الجبال في الكرة الأرضية عبارة عن كتل عائمة على بحر من المواد المنصهرة أسفل القشرة الأرضية، وأن هذه المواد المنصهرة أكثر كثافة من مادة الجبال ولذا لا بد أن تغوص الجبال في تلك المواد المنصهرة العالية الكثافة كي تحافظ على انتصابها.

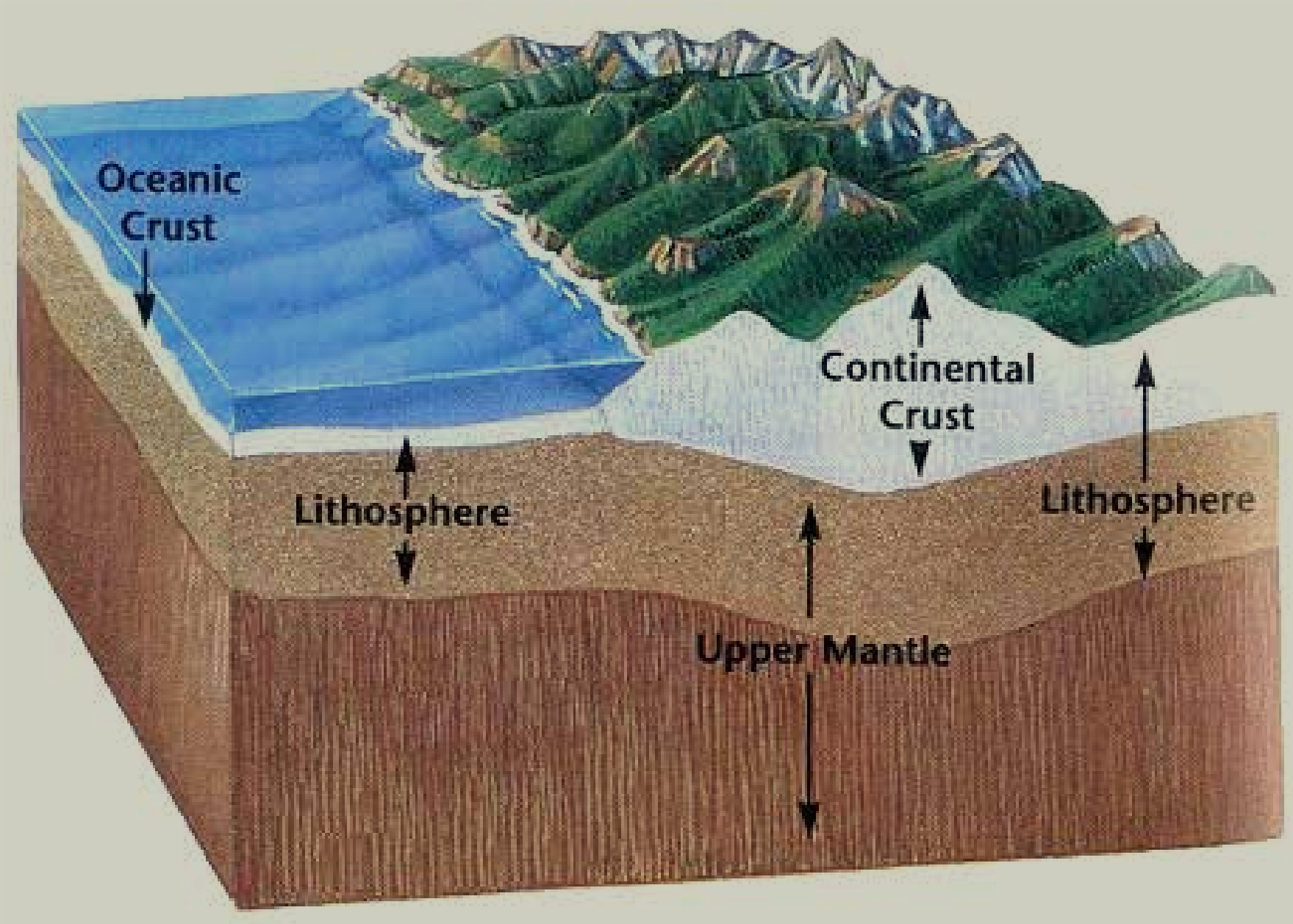

وهكذا اكتشف علم الجيولوجيا أن القشرة الأرضية عبارة عن قطع متجاورات سميت بالألواح أو الصفائح القارية، وأن الجبال الضخمة تطفو على بحر من الصخور المرنة الأكثر كثافة تقع دونها، وأن للجبال جذوراً تساعدها على الطفو وتثبيت تلك الألواح حتى لا تميد وتضطرب. يقول الجيولوجي فان أنجلين Van Anglin في كتابه «Geomorphology» الصادر في عام ١٩٤٨ (ص:٢٧): «من المفهوم الآن أنه من الضروري وجود جذر في السيما مقابل كل جبل فوق سطح الأرض».

وأما من حيث الوظيفة أو دور الجبال في تثبيت القشرة الأرضية فقد أكده مبدأ «التوازن الهيدروستاتي للأرض» كما ذكره الجيولوجي الأمريكي داتون Dutton سنة ١٨٨٩ حيث يقرر أن المرتفعات الجبلية تغوص في الأرض بمقدار يتناسب طرداً مع ارتفاعها وعلوّها، وحقيقة «الألواح الأرضية» التي تأيدت عام ١٩٦٩ تبيّن أن الجبال تقوم بحفظ توازن كل لوح من ألواح القشرة الأرضية.

وجه الإعجاز

في الوقت الذي كان فيه الإنسان يجهل حقيقة الجبال، والذي ظل كذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر، جزم القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة بأن الجبال تشبه الأوتاد شكلاً ووظيفة.

وتبين حديثاً صدق هذ التشبيه الدقيق؛ فبما أن للوتد جزء ظاهر فوق سطح الأرض وجزء منغرس في باطن قشرة الأرض ووظيفته تثبيت ما يتعلق به، فكذلك الجبال لها جزء ظاهر فوق قشرة الأرض وجزء منغرس في باطنها يتناسب طرداً مع ارتفاعها وعلوّها، ووظيفة الجبال هو تثبيت ألواح قشرة الأرض ومنعها من أن تميد وتضطرب بفعل الطبقة المنصهرة تحتها، وبهذا يتضح أن هذا الكتاب هو كلام الله تعالى خالق الجبال والأكوان مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥﴾ [النحل]

تداخل وتمايز الكُتل البحرية

قال تعالى:

(مَرَجَ ٱلبَحرَين يَلتَقيَان ١٩ بَينَهُمَا بَرزَخٞ لَّا يَبغيَان ٢٠)

[الرحمن]

الدلالة العلمية

لم يُعرف أن البحار المالحة مختلفة في التركيب وليست بحراً متجانساً واحداً إلا عام ١٨٧٣م عندما طافت رحلة تشالنجر في البحار ثلاثة أعوام ...

وفي عام ١٩٤٢م فقط ظهرت لأول مرة نتيجة أبحاث طويلة جاءت نتيجة لإقامة مئات المحطات البحرية في البحار حيث وجدوا أن المحيط الأطلنطي مثلاً ليس بحراً واحداً بل يتكون من بحار مختلفة وهو محيط واحد. وتختلف كتله المائية في درجات الحرارة والكثافة والملوحة والأحياء المائية وقابلية ذوبان الأكسجين.

هذا في المحيط الواحد، فضلاً عن بحرين مختلفين -كالبحر الأبيض والبحر الأحمر، والبحر الأبيض والمحيط الأطلنطي، والبحر الأحمر وخليج عدن- يلتقيان في مضايق معينة. ففي ١٩٤٢م عرف لأول مرة أن هناك بحاراً تلتقي فيها المياه لكن بعضها يختلف عن بعض في الخصائص والصفات.

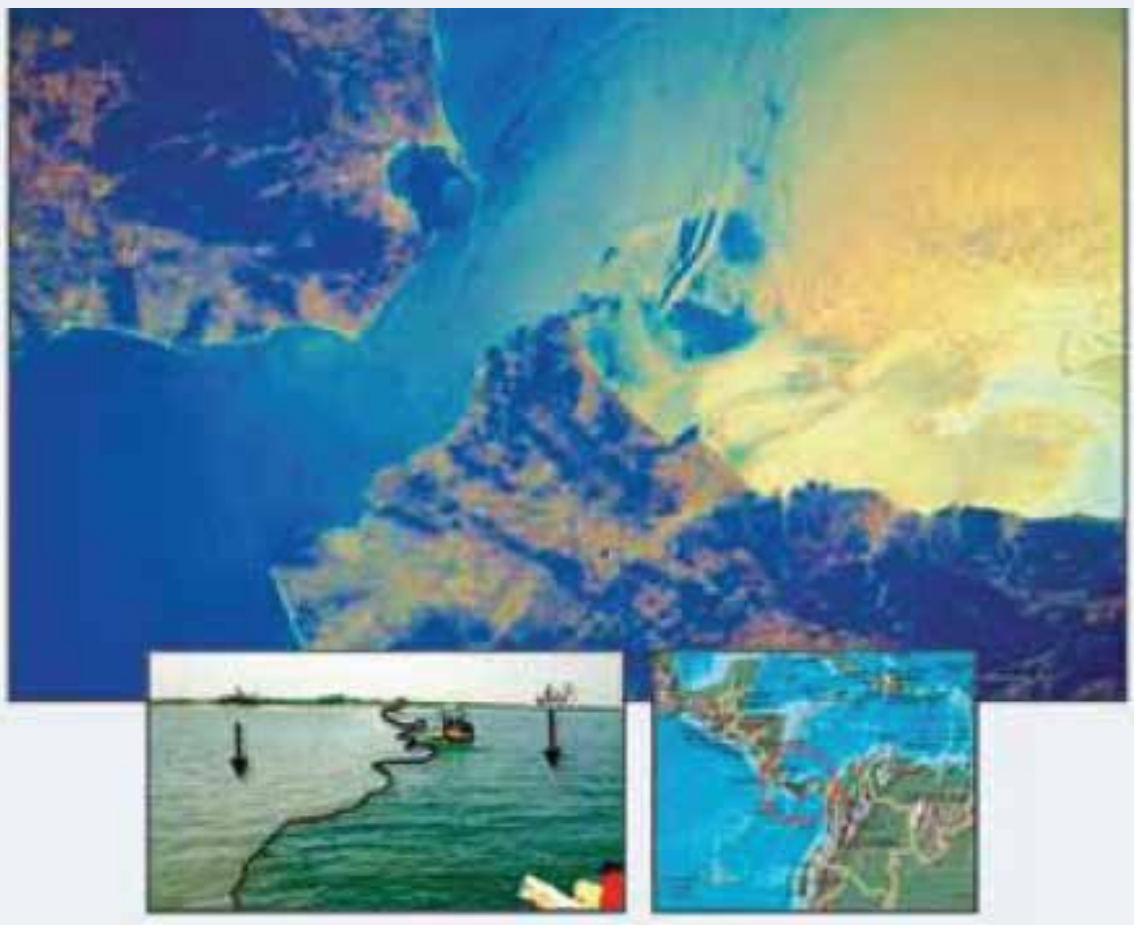

صور توضح اختلاف منطقة التمازج بين القطع البحرية

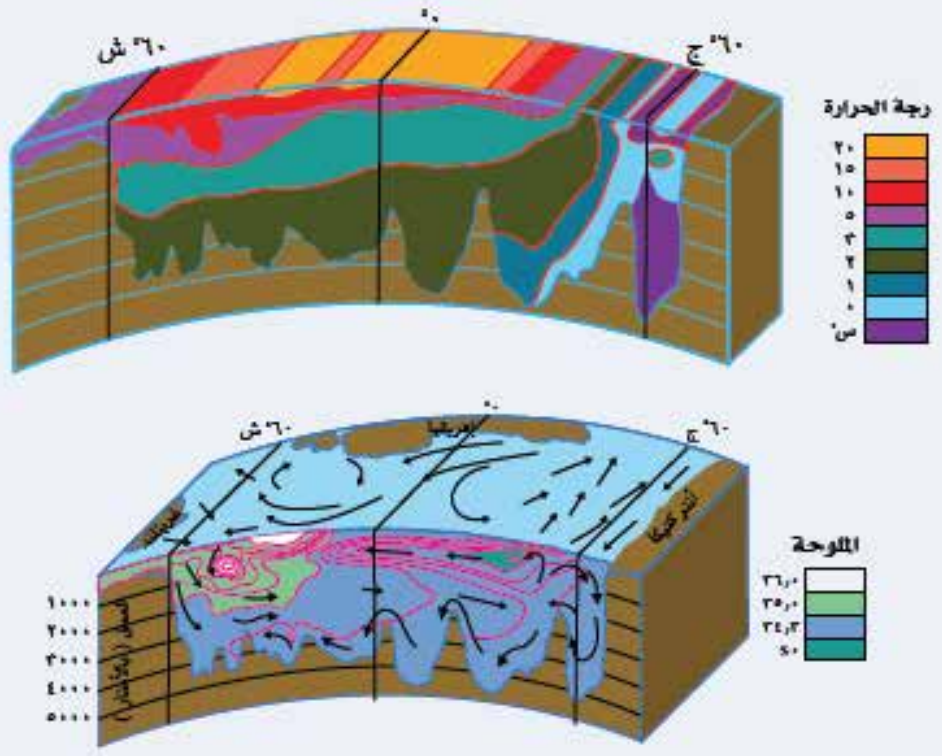

رسم توضيحي رأسي لمياه المحيط يظهر من خلالها تنوع الكتل المائية في الخصائص الفيزيائية حتى على المستوى الرأسي.

ومياه البحار ليست ساكنة وإنما في حركة دائبة تجعل كتل المياه تتداخل فيما بينها لكنها تظل محافظة على صفات كل منها من حيث درجة الملوحة ودرجة الحرارة والكثافة. كما أن المد والجزر والتيارات المائية والأمواج والأعاصير كلها عوامل تجعل مياه البحار في حركة دائمة ومع ذلك.. لا تمتزج الكتل البحرية المتباينة الخصائص وكأن هناك حاجزاً يفصل بين كل بحرين متجاورين في محيط أو في مضيق.

وجه الإعجاز

تتحدث الآيات الكريمات عن بحرين مالحين متجاورين متداخلين ويحتفظ كل منهما بخصائصه، وكأن بينهما حاجزاً يمنعهما من الاختلاط.

وذكر اللؤلؤ والمرجان في الآيات دليل على أنهما بحرين مالحين، لأنهما لا يُستخرجان إلا من البحار المالحة، مما يعني تعلق الحديث بمياه المحيطات والبحار المالحة التي تبدو واحدة بنفس الخصائص لكنها في الحقيقة كتل متجاورة ذات خصائص متمايزة.

تبدو المحيطات والبحار المالحة المتجاورة بالعين المجردة كأنها كتلة مائية واحدة متحدة الصفات، لكنها في الحقيقة جملة كتل مختلفة الصفات في الملوحة والحرارة والكثافة، ولم يدرَك ذلك إلا باستخدام التقنيات الحديثة، ومع ذلك ذكر القرآن الكريم تلك الأوصاف، فدل على تمايز كل بحرين مالحين متجاورين لأنهما يتداخلان فيما بينهما دوماً ولا يمتزجان وكأن بينهما حاجزاً يمنع اختلاط مياههما... أليس هذا دليلاً واضحاً على أن القرآن كلام الله !.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرءَانُ أَن يُفتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصدِيقَ ٱلَّذِي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٧﴾ [يونس]

ظلمات البحر العميق

قال تعالى:

(أَو كَظُلُمٰتٖ فِي بَحرٖ لُّجِّيّٖ يَغشَىٰهُ مَوجٞ مِّن فَوقِهِۦ مَوجٞ مِّن فَوقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمٰتُۢ بَعضُهَا فَوقَ بَعضٍۚ إِذَآ أَخرَجَ يَدَهُۥ لَم يَكَد يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّم يَجعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠)

[العنكبوت]

الدلالة العلمية

تقول الموسوعة البريطانية: غالباً ما تكون البحار والمحيطات العميقة مغطاة بسحب ركامية كثيفة تحجب قدراً كبيراً من ضوء الشمس، كما يظهر في أكثر صور الأقمار الاصطناعية، فتعكس هذه الغيوم كمية كبيرة من أشعة الشمس وتحجب قدراً كبيراً من ضوئها، وأما الضوء الباقي فيعكس الماء قسماً منه، ويمتص القسم الآخر، الذي يتناقص تناقصاً رأسياً مع تزايد عمق المياه؛ فتنشأ مستويات من الظلمات داخل هذه البحار حتى عمق مائتي متر ويشتد الظلام بعد عمق ١٠٠٠ متر حيث تنعدم الرؤية تماماً. وقد كان "قرص سيتشي" (The Secchi Disk) هو أول جهاز استخدم لقياس عمق نفاذ الضوء في مياه المحيط.

وقد استطاع العلماء مشاهدة الأسماك في البحار العميقة على عمق يتراوح بين (٦٠٠ م - ٢٧٠٠ م) والتي تستخدم أعضاء مضيئة لترى في الظلام وتلتقط فريستها.

وجه الإعجاز

أشارت الآية الكريمة إلى ظاهرة الظلمات في البحار العميقة بتعبير البحر اللُّجِّي وهو البحر العميق، وأن الظلام في هذه البحار ظلام متدرج، قال المفسرون: "المراد بهذه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة البحر، فلا يبصر مَنْ كان في هذه الظلمات شيئاً". فالسحب الكثيفة التي تغطي هذه البحار تعكس قدراً من ضوء الشمس والبحار تعكس بأمواجها السطحية جزءاً آخر من هذا الضوء ثم تمتص المياه ألوان طيف الشمس لوناً بعد آخر حتى تختفي ألوان الطيف تماماً، ثم يأتي دور الأمواج الداخلية الذي يحيل الأعماق إلى ظلام دامس حتى إذا أخرج الإنسان يده لن يراها. وجاء تعبير ظلمات بعضها فوق بعض ليصف الواقع في هذه البحار بدقة بالغة. كما أن الأسماك في تلك الأعماق ليس لها عيون بل مجهزة بأعضاء منيرة خلقها الله تعالى في جسمها لتنير طريقها، وهذا وجه قوله تعالى:

﴿وَمَن لَّم يَجعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾ [النور]

هذه الحقائق العلمية المدهشة
ذكرها القرآن الكريم منذ أربعة عشر
قرناً، فمن أخبر محمداً صلى الله عليه
وسلم بها؟

إنّهُ اللّه.. جَلّ في عُلَاه.

ثم ماذا بعد..

وبعد هذه البراهين الجلية التي اتضحت لكم أعزائي القراء فيما سبق.. لعل القلوب النابضة بالحياة والعقول المستنيرة بالعلم..

تسأل: **أين الطريق إلى الله؟**

وكيف السبيل إلى طاعته ورضاه

لأن في ذلك الخير كل الخير.. في الدنيا والآخرة

والجواب كما يلي:

لقد بعث الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين الخالد والمنهج الحق الذي بناه الله على خمسة أركان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً.

وهو في جملته تنتظمه قاعدتان جليلتان هما:

- القاعدة الأولى: قاعدة العقيدة.
- القاعدة الثانية: قاعدة الشريعة.

القاعدة الأولى

قاعدة العقيدة

منطلقها:

(شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)

وبيانها كما يلي:

لا: حرف نفي.

إله: لها في لغة العرب أكثر من اثنين وعشرين معنى، ويجمع هذه المعاني كلها معنيان .. هما:

أعلى درجات الحب.

أرقى منازل الطاعة والتسليم المطلق.

وهما اللذان يحققان قضية العبودية التي قال الله عز وجل عنها:

﴿وَمَا خَلَقتُ ٱلجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلَّا لِيَعبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات]

والعبودية هنا: بمعنى الطاعة والاستجابة المطلقة لأمر الله وصناعة الحياة على منهج الله:

﴿قُل إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام]

وحتى يتحقق هذا المعنى .. وحتى تتحقق هذه المقاصد العظيمة فلا بد من أن ينتظم حياتنا كلها الإيمان بستة أمور، هي ما يعرف اصطلاحاً بأركان الإيمان:

الإيمان بالله .. وملائكته .. وكتبه .. ورسله .. واليوم الآخر .. وبالقدر خيره وشره.

وعند حديثنا عن الإيمان بالله فإنا قد قدمنا البراهين الجلية الظاهرة فيما سبق ذكره عن أنه وحده الخالق الرازق المتصرف في ملكوت السموات والأرض..

كما لا بد من تحقيق الإيمان بأنه المعبود المطاع الذي يجب أن نحقق مراده في كل شأن من شئون الحياة: عقيدة وشريعة وآداباً وأخلاقاً وتنظيماً لشئون الحياة، مع تعظيم ربنا في أسمائه وصفاته إيماناً بها وتسليماً بمعانيها وما تقتضيه من اللجوء إليه وسؤاله بها:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف]

القاعدة الثانية

قاعدة الشريعة

فهي قاعدة تنتظمها الضروريات الخمس التي لا يمكن لأي مجتمع فوق الأرض أن يحيى حياة كريمة يتذوق فيها حلاوة الكرامة التي أرادها الله له إلا بتحقق هذه القواعد في حياته منهجاً وسلوكاً، وهي كما يلي:

01 الحفاظ على الدين

الدين ضرورة بشرية .. إن لم تعبد ربك عبدت سواه، وصدق رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم عندما قال: «وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام» الأدب المفرد ٢٨٤/١ وصححه الألباني.

أي أصدق ما يصدق على كينونة الإنسان وحقيقة تعامله مع ما حوله من الكائنات المشهودة أنه إن لم يعبد ربه فإنه يقع تحت طائلة الضرورة في عبادة ما سواه ..

02 الحفاظ على النفس

النفس البشرية بناء الله الذي أحاطه بالإكرام حتى قال عليه الصلاة والسلام: «لزوال الدنيا وما عليها أهون عند الله من قتل امرئ مسلم» الترمذي٤ /١٦ قال الألباني رحمه الله: صحيح.

03 الحفاظ على العقل

العقل .. منّة من الله العظيم الذي ميز به الإنسان عن غيره وأكرمه به وجعله سبباً لإكرامه وتكليفه وأمره بالحفاظ عليه.. ويتمثل هذا في أمرين:

- الحفاظ عليه من بلاء المسكرات والمخدرات.
- الحفاظ عليه مما هو أعظم من ذلك: الشبهات التي تدمره، كيفما كان شكل هذه الشبهات، وهي سهام أبالسة البشر ممن يكيدون لهذا الدين، ولكن ما إن تُعرَض هذه الشبهات على حقائق هذا الدين حتى تتهاوى وتتلاشى تحت تلك الشهب المرسلة من الكتاب والسنة التي يعلمها العلماء.

04 الحفاظ على المال

المال .. عصب الحياة ومقومها وبه يتحقق البناء وتقوم الكيانات الحضارية، وقد يسَّره الله تعالى لسد حاجة الأمة، وذلك يقتضي منا أن نحقق فيه منهج الله في ثلاثة أمور: كسباً ونماء واستهلاكاً.

05 الحفاظ على العرض والنسب

الحفاظ على العرض والنسب أصبح في هذا الزمان من أعظم المقاصد الشرعية على اعتبار أن الإسلام يجعل الحفاظ على العرض والأسرة الأصل في بناء مجتمع تقي بخلاف تلك الدعوات التي تريد أن تدمر الإنسان بدعواتها المشبوهة والتي تفضي إلى تحطيم الأسرة وتخريب المجتمعات.

ما هي ثمرات الإيمان؟

بعد تأمل طويل لم أجد خيراً تسعى الأمة لتحقيقه في هذه الحياة على مستوى الفرد والأسرة والأمة إلا والقادر على منحه وعطائه هو الله، قال تعالى:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]،

والله جلت قدرته وتعالت عظمته قد جعل الطريق الواصل إلى تحقيقه، والشرط المهم لحصوله هو الإيمان، وإليك أخي البرهان:

سعة الرزق

﴿وَأَلَّوِ ٱستَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسقَينَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ١٦﴾
[الجن]

النُصرة

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَينَا نَصرُ ٱلمُؤمِنِينَ ٤٧﴾
[الروم]

العزة

﴿وَلِلَّهِ ٱلعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلمُؤمِنِينَ﴾
[المنافقون:٨]

التمكين في الأرض

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُم وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم فِي ٱلأَرضِ كَمَا ٱستَخلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرتَضَىٰ لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعدِ خَوفِهِم أَمنًا يَعبُدُونَنِي لَا يُشرِكُونَ بِي شَيـًٔا﴾
[النور:٥٥].

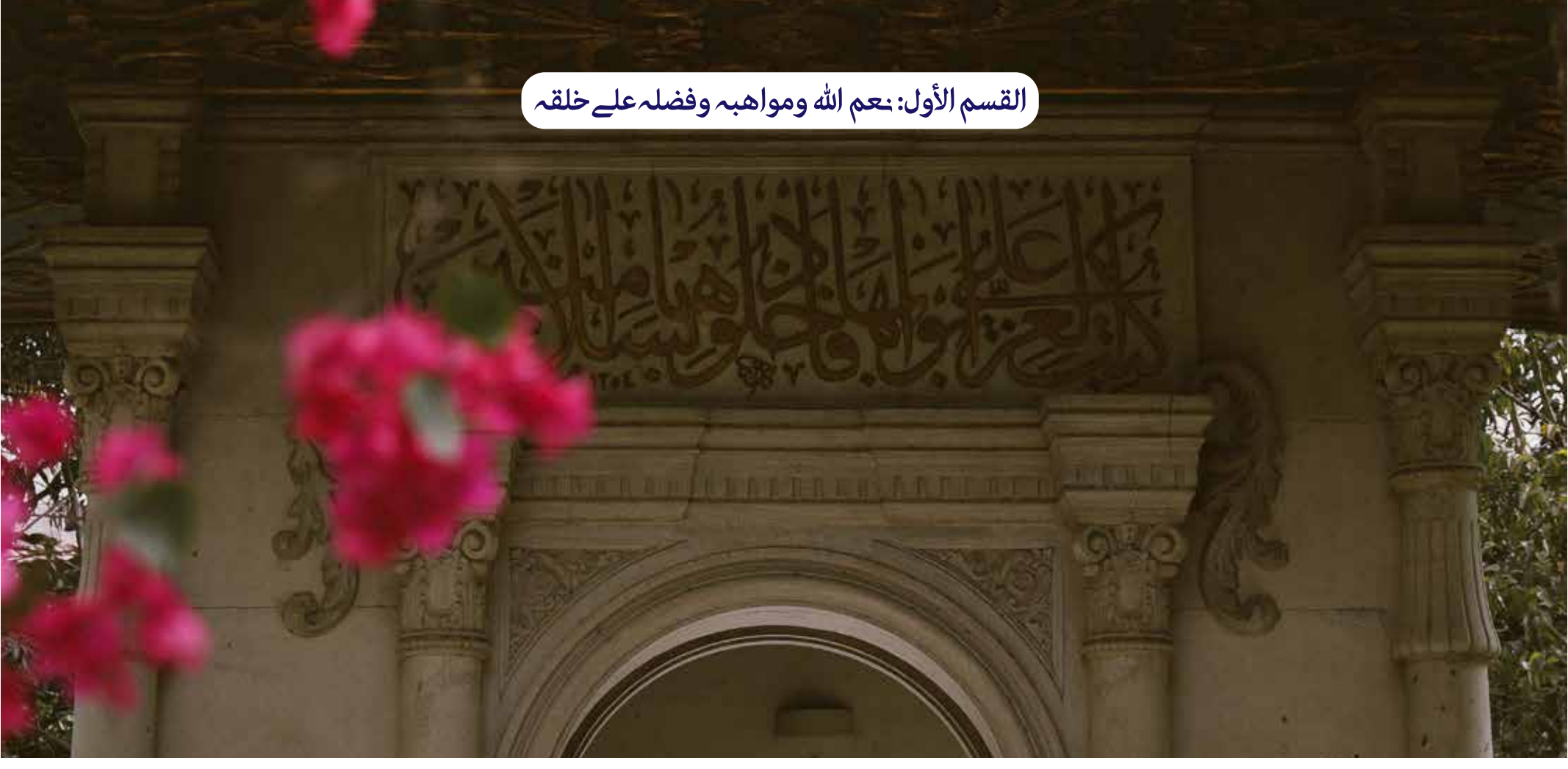

الحياة الطيبة

﴿مَن عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَو أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤمِنٞ فَلَنُحيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ وَلَنَجزِيَنَّهُم أَجرَهُم بِأَحسَنِ مَا كَانُواْ يَعمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل].

الأمن النفسي والأمن الاجتماعي

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَم يَلبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلأَمنُ وَهُم مُّهتَدُونَ ٨٢﴾
[الأنعام]

الضمان الرباني للأبناء والبنات بعد الوفاة

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:٨٢]
فقد سخر الله نبياً ووليا لخدمة طفلين لأن أباهما كان مؤمناً.

محبة الخلق

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾
[مريم]

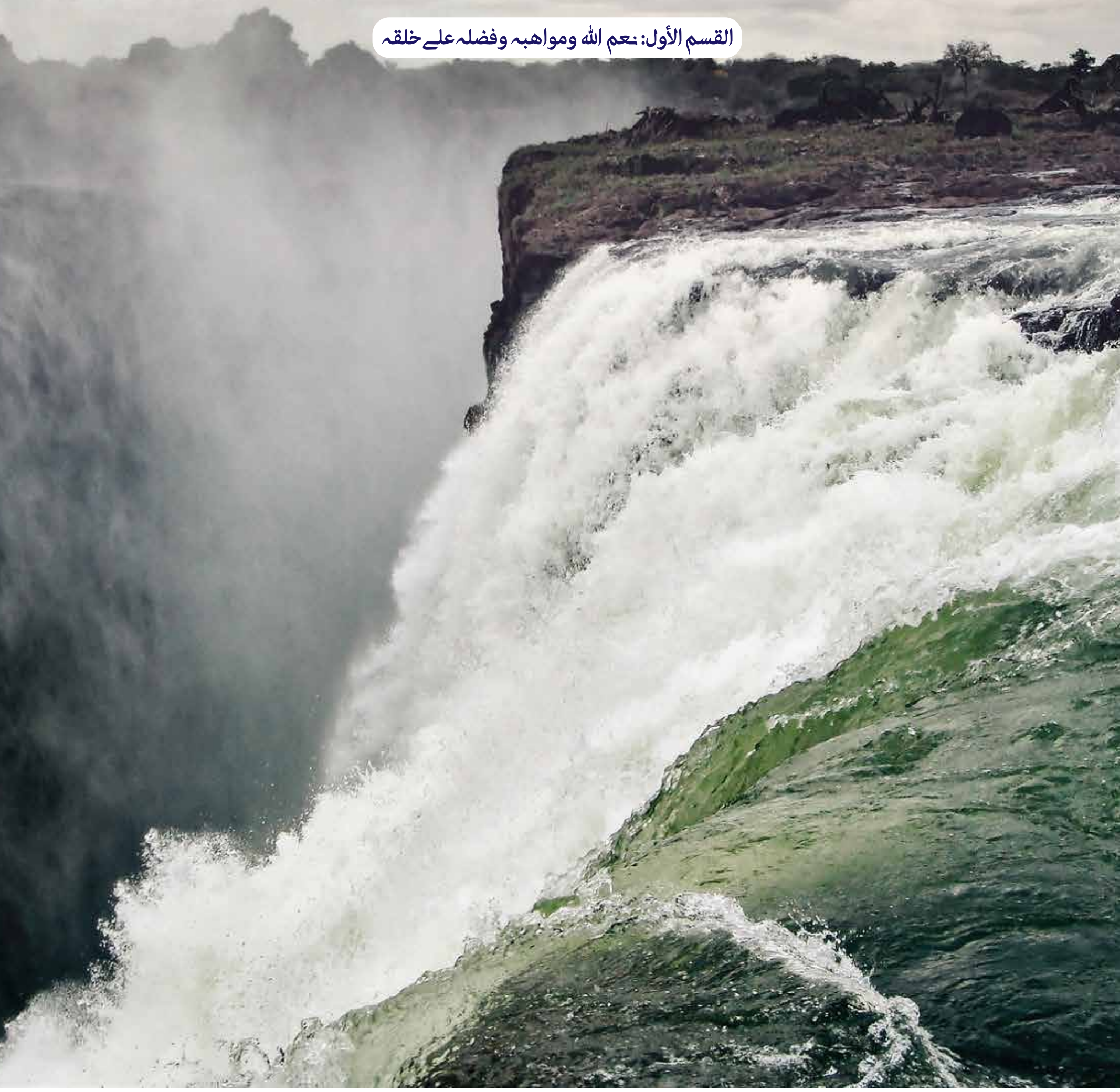

العلاقة بالملأ الأعلى المسبح بقدس الله في عليائه

وهي علاقة ترفع الإنسان من أوحال الطين إلى سمو الروح العالية المتعلقة بربها سبحانه، قال عز وجل عن ملائكته المسبحة بقدسه:

﴿وَيَستَغفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعتَ كُلَّ شَيءٖ رَّحمَةٗ وَعِلمٗا﴾ [غافر:٧]

هذا هو الطريق الذي من سلكه وصل بتوفيق الله إلى تحقيق السعادة الآمنة المستقرة في الدنيا.. والجنة في الآخرة.

سائلين الله تعالى التوفيق والسداد، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وعلى الوجه الذي يرضيه عنا، وأن يجعل في هذا الكتاب نبراسا يهتدي به الناس، وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد بن عبد الله الهاشمي وعلى آله وأصحابه،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رسول الله

المِنح الإلهيَّة
في إقامة الحُجة على البشرية

د. عبد الله بن عبد العزيز المصلح

الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

www.rasoulallah.net